المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

كلية التربية

قسم علم النفس



مفهوم الصحة النفسية

من وجهتي نظر الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله والدراسات النفسية الحديثة

دراسة تحليلية

إعداد الطالب

عبد العزيز بن عبد الله الأحمد



إشراف الدكتور

عبد المنان ملا معمور بار

رسالة مكملة لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في علم النفس ، تخصص " إرشاد نفسي " مقدمة إلى قسم علم النفس بكلية التربية بمكة المكرمة جامعة أم القرى

الفصل الدراسي الثاني ١٤١٧ هـ

ملخص الدراسة

الموضوع : مفهوم الصحة النفسية من وجهتي نظر الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله والدراسات النفسية الحديثة " دراسة تحليلة " .

الأهداف : تهدف الدراسة إلى إبراز رؤية ابن قيم الجوزية ، ونظرة الدراسات النفسية الحديثة حول مفهوم الصحة النفسية ، وسبل تحقيقها مع توضيح جوانب الالتقاء والاختلاف بينهما .

حدود الدراسة : ١- مفهوم الصحة النفسية وسبل تحقيقها عند ابن قيم الجوزية رحمه الله .

١- بعض كتب ابن قيم الجوزية رحمه الله . ٢- بعض كتب الدراسات النفسية الحديثة

منهج الدراسة : استخدم الباحث منهج تحليل المعلومات وذلك باستخراج النصوص التي لها علاقة بالموضوع من كتب ابن قيم الجوزية وتحليلها ومقارنتها بالدراسات النفسية الحديثة .

نتائج الدراسة : ١- اتفاق ابن القيم والدراسات النفسية الحديثة على أهمية الصحة النفسية .

٢- اختلاف ابن القيم عن الدراسات النفسية حول الطريق إلى الصحة النفسية .

٣- أبرز ابن القيم في سمات الصحة النفسية دور الجانب الروحي الإيماني كالعبودية والذكر

٤- ركزت الدراسات النفسية الحديثة في المرتكزات لتحقيق الصحة النفسية على مفهوم الذات بناءً على متابعة أقوال المرشدين النفسيين ولم تذكر أهمية معرفة الله في بناء المفهوم الصحيح للذات

٥- ربط ابن القيم السواء والاضطراب بالعبودية لله وجوداً وعدماً ، أما الدراسات النفسية الحديثة فتربطها بخروج السلوك عن معايير المجتمع سواء كانت سيئة أو حسنة .

٦- أكد ابن القيم على أن المعتبر في التوافق هو موافقة الحق لا الخلق ، أما الدراسات النفسية فالتوافق الأهم مع الخلق .

٧- يؤكد ابن القيم على أهمية أخذ الحق ممن جاء به ، ولو كان مخالفاً في نظرة أو عقيدة .

التوصيات : ١- أهمية إبراز الجانب الروحي ، وتأثيره على حياة الإنسان وأنه جانب مهم لتحصيل الحياة السعيدة كما أن فقده سبب كبير لتحطيم الحياة السعيدة .

٢- الاهتمام بالعلم النافع للإنسان في دنياه وأخراه ، فهذا مصدر مهم لتحقيق الصحة النفسية والحياة الطيبة عن طريق وسائل التعليم المختلفة .

٣- أهمية إيضاح أن الدين كما أنه اعتقاد قلبي فهو نشاط حركي يتمثل بالعبادات الظاهرة ، وكذلك الأخلاق وأعمال القلوب .

٤- ضرورة إيجاد معنى لحياة الإنسان ، وهذا يتحقق بالدخول تحت مظلة العبودية لله تعالى بدلاً من اتخاذ " نظريات متعددة " ومتناقضة ، وكلها من صنع بشر .

٥- التأكيد على التعاون والتكميل بين الناس في بذل العلم والخبرة والنصح والتوجيه والتربية ، وذلك يتحقق ببذل العلم والمال والفكر .

٦- أهمية التعددية في مصادر المعرفة التي تجمع بين النقل " الوحي " والعقل الصحيح ، والملاحظة والتجربة .

اسم الطالب	المشرف	عميد الكلية
عبد العزيز بن عبد الله الأحمد	د. عبد المنان ملا معمور بار	د. عبد العزيز عبد الله خياط
التوقيع	التوقيع	التوقيع

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كل مسلم متخصص مريد لتأصيل العلوم التربوية والنفسية إسلامياً أهدي هذا العمل المتواضع.

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً . أما بعد :-

قال رسول الله ﷺ : ﴿ **من لم يشكر الناس لم يشكر الله** ﴾ رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، (وصححه الألباني ، ج ٢ : ١١١٤ ، ١٤١٠ هـ) ، وإنـي بعد شكر الله عز وجل أشكر كل من ساعدني لإخراج هذا البحث إلى الوجود ، وأخص بالشكر سعادة الدكتور الفاضل عبد المنان ملا معمور بار ، حفظه الله على ما تفضل به عليّ من الإشراف والتوجيه والتعليم وكذلك ما لمسته من حسن خلقه وتواضعه ومناقشته لي بأدب جمٍّ ، وحرصه الشديد على تنمية قدرات الباحث العلمية والفكرية ، وإن من حقه علي الدعاء له أن يبارك الله في عمله وجهده آمين .

كما أتقدم بالشكر إلى رئيس قسم علم النفس الدكتور جمال قزاز ، والأستاذ الدكتور محمد حمزة سليماني ، على تفضلهما لمناقشة خطة البحث وأشكر أيضاً الأستاذ الدكتور محمد حمزة سليماني ، والدكتور عبد اللطيف بالطو على تفضلهما لمناقشة هذا البحث ، وكذلك أشكر كافة أعضاء هيئة التدريس بالقسم على ما قدموه لي من توجيه وتعليم أثناء الدراسة وإعداد البحث .

كما أتقدم بالشكر لعمادة كلية التربية ممثلة في عميدها ووكيله ، وكافة منسوبيها على ما قدموه من تسهيلات أثناء إعداد هذا البحث واخراجه بهذه

الصورة .

وكذلك أشكر القائمين على مركز الملك فيصل للبحوث ، ومكتبة الملك فهد الوطنية ، على ما قدموه لي من عون ومساعدة ، كما أشكر معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي التابع لجامعة أم القرى على مساعدتهم .

كما أقدم شكري الوافر إلى أفراد عائلتي على تحملهم وصبرهم وتشجيعهم لي طوال مدة دراستي ، والله أسأل أن يلهمنا رشدنا ويعيذنا من شرور أنفسنا ويرزقنا العلم النافع والعمل الصالح ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

فهرس عام للمحتويات

الموضوع	الصفحة
– ملخص الدراسة .	ب
– إهداء .	ج
– شكر وتقدير .	د
– فهرس المحتويات .	و
– فهرس الأشكال التوضيحية .	ح
الفصل الأول	
مدخل إلى الدراسة	
– المقدمة .	٢
– مشكلة الدراسة .	٣
– تساؤلات الدراسة .	٣
– أهداف الدراسة .	٤
– أهمية الدراسة .	٤
– مصطلحات الدراسة .	٥
الفصل الثاني	
سيرة حياة ابن قيم الجوزية رحمه الله والدراسات السابقة	
أ– حياة ابن قيم الجوزية رحمه ا لله .	٨
ب– الدراسات السابقة :	
– البحوث العلمية .	٢١
– الكتب المطبوعة .	٢٤
– التعليق على الدراسات السابقة .	٢٦
الفصل الثالث	
– منهج الدراسة	٢٩

- حدود الدراسة . ٢٩

الفصل الرابع
مفهوم الصحة النفسية عند ابن القيم رحمه الله

- أهمية الصحة النفسية " الحياة الطيبة " . ٣١
- خصائص الصحة النفسية عند ابن قيم الجوزية . ٣٦
- مرتكزات تحقيق الصحة النفسية . ٥٧
- التوافق حدوده وعوائقه . ٨٦
- السواء والاضطراب والمعيار لتحديدهما . ٩٦
- منهج ابن قيم الجوزية للحكم على المعلومات . ١١٦

الفصل الخامس
خلاصة النتائج

- خلاصة نظرة ابن القيم لتحقيق الصحة النفسية . ١٢٤
- النتائج . ١٢٧
- التوصيات . ١٣١
- المقترحات . ١٣٣
- المراجع . ١٣٤

فهرس الأشكال التوضيحية

رقم الشكل		الصفحة
(١)	مراحـــــــــــــل التوبـــــــــــــة	٨٣
(٢)	مفهوم الصحة النفسـية ' الحيـاة الطيبـة ' الشـامل	٨٦
(٣)	مفهـوم التوافـق عنـد ابـــن القيـــم رحمــــه الله	٩٣
(٤)	مفهوم السواء النفســي عنـد ابـن القيـم رحمـه الله	٩٩
(٥)	مفهـوم الاضطـراب ' المـرض ' عنـد ابـــن القيـــم	١٠٣
(٦)	مراتـــب الســـواء عنـد ابـــن القيـــم رحمـــه الله	١١٤

الفصل الأول

المدخل إلى الدراسة

- مقدمة .
- مشكلة الدراسة .
- تساؤلات الدراسة .
- أهداف الدراسة .
- أهمية الدراسة .
- مصطلحات الدراسة .

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ با لله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد ا لله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا ا لله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً . أما بعد :

إن الصحة النفسية أمل ينشده الناس كلهم بلا استثناء ، ومطلب يود الوصول إليه كل مخلوق ، إن الإنسان يبحث دائماً عن السعادة والراحة والنجاة من غوائل الأمراض ويضحي من أجل ذلك بالغالي والنفيس وذلك من قديم الزمان وحديثه ، إلا أن هذا الإهتمام ازداد بصورة كبيرة في هذا القرن الصاخب ، إذ تتسم الحضارة الإنسانية في القرن العشرين وخاصة في الثلث الأخير منه بزيادة معدلات الإصابة بالإضطرابات النفسية والأمراض العقلية وإنحرافات السلوك وغيرها من أنواع الشذوذ السلبي ، وتنسحب هذه الزيادة على معظم بلدان العالم إلا قليلاً . (عبد الخالق : ١٣٩٣م)

فالصحة النفسية واحدة من الموضوعات المهمة في حياة الإنسان وقد بذلت ولا تزال تبذل جهود لإبراز أهميتها ، وهذا الإهتمام ليس قاصراً على الدراسات النفسية الحديثة بل هناك مساهمات لعلماء الإسلام السابقين ، ولكن هناك قصور في إبراز هذه المساهمات ، وإن كانت تلك المساهمات لا تستخدم المصطلحات والمفاهيم النفسية الحديثة إلا أن المتعمق في مدلولها ومظاهرها يلاحظ أن هناك اهتماماً كبيراً بهذا الجانب ، وأنه يحتاج إلى جهود أبناء العالم الإسلامي لإظهاره وإبرازه ، حيث أن هذه المصطلحات والمفاهيم ليست جاهزة وإنما ينبغي التنقيب عنها في ثنايا كتب علماء الإسلام ورغم أن هذا العمل في هذا المجال يعد كبيراً وواسعاً إلا أن الباحث قصر جهوده على

علـم مـن أعـلام الأمـة الإسـلامية هـو ابـن قيـم الجوزيـة رحمـه الله (٦٩١ - ٧٥١ هـ) .

ولقد تكلم هذا العالم عن كثير من المفاهيم النفسية وخاصة الحياة الطيبة التي تقابل في العصر الحاضر مصطلح الصحة النفسية فأبان عنها بياناً شافياً كافياً بأسلوب أدبي ، وتحقيق علمي ، واستدلال شرعي ، مع استخدام المجال النظري ، والإفادة من النظر العقلي بترابط جيد ، وانسجام حسن ، ولذا كان من المناسب أن يتكلم الباحث عن جهوده ولو في جانب واحد من علم النفس وهو الصحة النفسية لكي يكون الدارسون والمتخصصون على دراية بذلك .. ويستفيدوا من جهود أسلافهم الذين يشاركونهم الدين والأفكار والهموم والآمال .

مشكلات الدراسة :

إن المطلع على الكتب والبحوث بل والدراسات العلمية في مجال علم النفس ليجدها فقيرة من البحث في جهود علماء الإسلام وإخراج عطاءهم الفكري في ذلك فليس هنالك إلا كتبٌ تعد على رؤس الأصابع تتكلم عن ذلك .. أما الرسائل فلا يوجد إلا عدد أقل من القليل .. فضلاً عـن ابن القيم رحمه الله الذي لم يجد الباحث أحداً من الدراسين أبرز جهوده في مجالات علم النفس ، اللهم إلا بحوثاً يسيرة قليلة تكلمت عن جوانب معينة كالشخصية والأمراض .. لذا رأى الباحث العمل على إظهار جهود هذا العالم في فرع مهم من فروع علم النفس في هذا العصر بالذات وهو الصحة النفسية .

تساؤلات الدراسة :

تسعى هذه الدراسة للإجابة على التساؤل الرئيسي الآتي : -

١- ما مساهمات ابن قيم الجوزية في الصحة النفسية ؟ ويتفرع من هذا السؤال الأسئلة التالية :-

أ- ما خصائص الصحة النفسية عند ابن القيم ؟

ب- ما مرتكزات الصحة النفسية عند ابن القيم ؟

ج- ما مفهوم التوافق عند ابن القيم ؟

د- ما مفهوم السواء والاضطراب عند ابن القيم ؟

هـ- ما مصادر ابن القيم للحكم على المعلومات ؟

و- ما معيار ابن القيم للتمييز بين السواء والاضطراب ؟

٢- ما جوانب الالتقاء والاختلاف بين ابن قيم الجوزية وعلماء النفس المحدثين في مفهوم الصحة النفسية وسبل تحقيقها ؟ .

أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة إلى ما يلي : -

١- إبراز إسهامات ابن قيم الجوزية في الصحة النفسية وذلك في :-

أ- خصائص الصحة النفسية .   ب- مرتكزات الصحة النفسية .

ج- مفهوم التوافق .   د- مفهوم السواء والاضطراب .

هـ- مصادره للحكم على المعلومات . و- معياره للتمييز بين السواء والاضطراب .

٢- توضيح جوانب الالتقاء والاختلاف بين وجهتي نظر ابن القيم وعلماء النفس المحدثين لمفهوم الصحة النفسية .

أهمية الدراسة :

١- تنبع أهمية هذه الدراسة في أنها واحدة من الدراسات التي اهتمت بعالم من علماء الإسلام الذي له مساهمات كبيرة في مجال الدراسات الشرعية بصورة عامة والتربوية والسلوكية النفسية بشكل خاص .

٢- محاولة تعريف القارئ والطالب المتخصص في مجال الدراسات النفسية بجهود أحد علماء الإسلام الذي برز في مجال هذه الدراسات حيث أن عدم

إظهارها وإبرازها أدى للظن أن هؤلاء العلماء لا يعطون هذا المجال وأمثاله أي عناية .

٣- محاولة البحث عن الآراء النفسية عند هذا العالم المسلم وخاصة في مجال الصحة النفسية وسبل تحقيقها لكي يعطي فائدة للناس جماعات وأفراداً لتطبقيها بدلاً من الاقتصار على الآراء الغربية الصرفة .

٤- إن كتابات ابن قيم الجوزية تحتوي على جوانب فكرية أصيلة تعكس مظاهر الفكر الإسلامي ومساهماته الفاعلة والذي يفتقد في كثير من مؤلفات علم النفس ، ويمثل ذلك رداً واضحاً على أولئك الذين يشككون في مساهمات علماء المسلمين أو يسخرون من مساهماتهم في هذا العلم .

٥- إن إبراز مساهمات ابن قيم الجوزية في مجال الدراسات النفسية تعتبر تأصيلاً لتراثنا الفكري الإسلامي بما يتمشى مع ثقافتنا وشخصيتنا التي تختلف عن ما هو موجود في الثقافة الأوربية أو الأمريكية ، يقول الشناوي (١٤١٦هـ) : " ومن هنا نجد أنه من غير المناسب أن يستعير أي مجتمع نظريات للشخصية تطورت في مجتمعات أخرى تختلف عنه في المعتقدات والعادات والقيم ، ولذا لابد للباحث المسلم أن يبحث عن التصور الإسلامي لشخصية الإنسان وطبيعتها ، ومفهوم إسلامي للسلوك السوي والمنحرف " (ص٢)

مصطلحات الدراسة :

الصحة النفسية تباينت تعريفات الصحة النفسية منها ما يراه عبد الخالق (١٩٩٣ م) : " بأنها حالة عقلية انفعالية مركبة دائمة نسبياً من الشعور بأن كل شيء على ما يرام ، والشعور بالسعادة مع الذات والآخرين والشعور بالرضا والطمأنينة والأمن وسلامة العقل ، والإقبال على الحياة ، مع شعور بالنشاط والقوة والعافية ، ويتحقق في هذه الحالة درجة مرتفعة نسبياً من

التوافق النفسي والاجتماعي مع علاقات اجتماعية راضية ومرضية " (ص٣٢)

وقد ذكر الهابط (١٩٨٧ م) " أن الصحة النفسية هي التوافق التام بين الوظائف النفسية المختلفة مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية التي تطرأ على الإنسان ، ثم الإحساس الإيجابي بالسعادة والرضا " . (ص٢١)

ومن مجمل هذين التعريفين يخرج الباحث بنتيجتين :

أولاهما : أن هذا الاختلاف في التعاريف وتركيز بعضها على بعض جوانب السلوك سببه اختلاف مدارسهم وثقافتهم ووجهات نظرهم .

ثانيتهما : إن أغلب هذه التعاريف تدور حول المفاهيم المشهورة لدى المهتمين بالصحة النفسية مثل التكيف ، والتوافق النفسي والاجتماعي ، والشعور بالرضا والسعادة ، وهذا ما يراه نجاتي (١٤٠٩هـ) .

وكما يرى الباحث تركيز الدراسات النفسية على الرضا والسعادة شعوراً والمسئولية الشخصية والاجتماعية توافقاً ، إلا أن تعريف الصحة النفسية الذي يقصد الباحث الوصول إليه هو أن يحيا الإنسان تحت مظلة العبودية لله مجاهداً لنفسه لتحقيق طاعة الله والتوبة من الخطأ والذنب متحلياً بالوسطية والعدل في كل شيء متجلياً بالوسطية والعدل في كل شيء صابراً ذاكراً لله تعالى همه موافقة الحق والإحسان للخلق معملاً فكره فيما يصلحه دنيا وأخرى ، مهتماً بصحة قلبه وجسمه . وبعض هذه المعاني أشار إليها كل من محمد ، ومرسي (١٤٠٦هـ) فقالا : " الصحة النفسية أن يعيش الإنسان على فطرته في قرب من الله وسلام مع الناس ووئام مع النفس وسلامة في الجسد ونجاح في الحياة "(محمد ، ومرسي ، ١٤٠٦هـ : ص٦٤) وفي هذا التعريف يبرز الجانب الروحي الذي أُغفل كثيراً في التعريفات السابقة ، وهذا ما أكده ابن القيم رحمه الله في عديد من كتبه .

الفصل الثاني

-سيرة حياة ابن قيم الجوزية رحمه الله والدراسات السابقة :

أ- ترجمة حياة ابن قيم الجوزية

ب- الدراسات السابقة :

- البحوث .

- الكتب .

- التعليق على الدراسات السابقة .

سيرة حياة ابن قيم الجوزية رحمه الله[1]

١- مولده ونشأته :

لم تكن نشأة هذا العالم الجليل تختلف عن نشأة علماء زمانه ومفكري عصره . ولد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زين الدين الزُرعي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية في اليوم السابع من شهر صفر سنة ٦٩١هـ في دمشق ، تربى هذا العالم في كنف والده الشيخ الصالح العابد الناسك أبو بكر بن أيوب بن سعد الزُرعي . مما يسر له طريق العلم والمعرفة والتربية الحسنة ودفعه أبوه إلى مجالس العلماء للقراءة عليهم والأخذ عنهم وهو بَعْدُ لم يبلغ العاشرة وشاركه في هذا الطلب أخوه زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي بكر رحمه الله ، إن هذا البيت الصالح الذي نشأ فيه ابن قيم الجوزية جعله يتقلب في أعطاف العلم تعلماً وتعليماً فصار هذا مع ما آتاه الله من فكر وقاد وحافظة غريبة وإطلاع مدهش وصفاء نفس وسلامة صدر صار له الأثر الكبير جداً في تخرجه ونبوغه على تلك الصفة الكريمة والحياة السعيدة التي ملأ بها الطروس والأسماع ثناءً جميلاً وذكراً حميداً وتراثاً ازدانت به المكتبة الإسلامية والمحافل العلمية (أبو زيد ، ١٤١٢هـ : ٤١)

٢- طلبه للعلم ومشايخه :

ذكر أبو زيد (١٤١٢هـ) أن ابن القيم اهتم بأغلب العلوم المشهورة في عصره والتي تعم علوم الشريعة وعلوم الآلة فقد درس التوحيد ، وعلم الكلام والتفسير ، والحديث ، والفقه وأصوله ، والفرائض ، واللغة والنحو وغيرها وقد أخذها عن علماء عصره المتقنين في علوم الإسلام يقول عنه تلميذه ابن رجب : ((تفقه في المذهب وبرع وأفتى ، ولازم الشيخ تقي الدين بن تيمية

تفنن في علوم الإسلام ، وكان عارفاً في التفسير لا يجارى ، وبأصول الدين وإليه فيها المنتهى والحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك ، وبالفقه وأصوله وبالعربية وله فيها اليد الطولى وعلم الكلام والنحو وغير ذلك وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ورقائقهم له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى)) (ص : ٥١) .

أما مشايخه فكثر والباحث يقتصر على ذكر مشاهيرهم :

١- **قيم الجوزية** والد المترجم له ، وأخذ عنه الفرائض وكان له فيها اليد الطولى .

٢- **ابن عبد الدائم .**

٣- **شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى** أخذ عنه التفسير والحديث والفقه والفرائض والأصلين وعلم الكلام ، ولازمه سبعة عشر عاماً تقريباً وأخذ منه علماً جماً .

٤- **الشهاب العابر** أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة النابلسي .

٥- **المجد الحراني** شيخ الحنابلة بدمشق ، أخذ عنه الفرائض والفقه والأصول.

٦- **أبو الفتح البعلبكي** أخذ عنه العربية والفقه .

٧- **المزي** جمال الدين بن يوسف ، يعتمد عليه خاصة في الحديث ورجاله ... وغيرهم .

بيئة ابن القيم :

النواحي المهمة المؤثرة في بيئة ابن القيم ثلاث نواحي : السياسية ، الاجتماعية ، العلمية :

أ- الناحية السياسية :

فقد كانت بلاد الشام إذ ذاك تابعة لدولة المماليك الذين جعلوا عاصمتهم

في مدينة القاهرة ، وفي كلا القطرين عانى الحكم المملوكي من عدم الاستقرار وكثرة الاضطرابات حتى لا يكاد يوجد أحد السلاطين مات ميتة طبيعية بسبب كثرة الانقلابات والفتن والوصول إلى السلطة بالقوة كذلك عاصر ابن القيم رحمه الله هجوم المغول التتريين على البلاد الإسلامية حتى وصلوا إلى دمشق ، وإلى جانب ذلك كانت بقايا الممالك الصليبية تحتل مدن الساحل في طرسوس وعكا وطرابلس وتشكل خطراً مستمراً على المسلمين في الداخل ، ولقد تحالفت هذه المماليك مع النصارى في جبل لبنان الذين أظهروا المشاعر العدائية للمسلمين وشاركوا الصليبين في نشاطاتهم المعادية ، إن هذا الوضع الذي يمثل الاضطراب الداخلي والعداء الخارجي دفع ابن القيم وغيره من علماء الإسلام المعاصرين له من أمثال شيخه ابن تيمية إلى القيام بالدعوة الإصلاحية والمناداة بالاعتصام بالكتاب والسنة والتحذير من الدعة والترف والمناداة الدائمة للجهاد بالسيف والسنان والقلم والذود عن حياض الدين .

ب- الناحية الاجتماعية :

كان مجتمع ابن القيم رحمه الله يتكون من أجناس وطبقات شتى ليسوا جميعاً من جنس واحد ولا يربطهم مذهب واحد مع أن أغلبهم تجمعهم عقيدة واحدة .

والمجتمع بصورة عامة يتكون من طبقتين كبيرتين :

الأولى : طبقة الأمراء وكان يقوم على رأسها السلطان وكان حظ هذه الطبقة من النفوذ والجاه " نصيب الجاه " .

والطبقة الأخرى : طبقة العلماء والفقهاء وقد استمدت هذه الطبقة قوتها من الدين ، وأما باقي الشعب فغالباً عامة أتباع .

إن الاضطرابات السياسية وتعدد الأجناس وتعدد المذاهب والاختلافات انعكست طبيعتها على المجتمع بالضعف والانحلال فالمظالم شاعت والمساواة

انتهكت وانتشرت الضرائب والإتاوات " الرسوم " التي أرهقت غالبية السكان .. وصاحب ذلك انتشار المفاسد الأخلاقية ، وتعاطي المسكرات ومظاهر اللهو وقد ذكر محمد (١٤١٤هـ) بعض المظاهر السيئة في ذلك العصر :

١- الترف لدى طبقة معينة وحرمان أكثر المجتمع من حقوقهم .

٢- الفقر الذي يعاني منه عامة الشعب والعلماء والأدباء المتمسكين بالإسلام

٣- تفشي داء الرشوة في الولاية .

٤- انتشار تعاطي المخدرات .

وقد حارب ابن القيم هذه الأوضاع وكذلك شيخه وكان شيخه يُسمِّي هذا المخدر " لقمة الزقوم " (ص ٢٦) .

إذاً عاصر ابن القيم هذا الوضع السيء مما حدا به إلى الإصلاح والدعوة التطبيقية إلى صراط الإسلام والهدى الصحيح .

ج- الناحية العلمية :

نعم كان هناك نشاط ثقافي جيد في بغداد ودمشق والحجاز وعلماء بارزون ولكن أكثرهم انكبوا على كتب المذاهب الأربعة شرحاً واختصاراً و لم يحاولوا الخروج من هذه الدائرة إلى بث العلم والتحرك في الواقع وتنشيط الذهن في الاجتهاد و لم يتحرك منهم إلا القليل . يقول الحجاجي (١٤٠٨هـ) : ((ولقد اقتصر أكثر نشاط العلماء في هذا العصر على قراءة التراث ، والاهتمام بالجمع والشروحات والموسعات والمختصرات في التأليف)) (ص ٨٥)

هذا العزوف جعل معتقدات المسلمين وعقولهم فريسة التشويه والانحراف اللذين ضربا بَساطة العقيدة الإسلامية في نفوس عامة المسلمين وحل محلها كثير من الخرافات المتعلقة بتقديس أضرحة الأولياء والمزارات المختلفة وصاحب ذلك كثير من الممارسات والبدع السيئة كذلك شاع التقليد

والمذهبية في الفقهاء المعاصرين ودور العلم واتباع المذاهب ونتج عن ذلك كله عصبية مذهبية ناقشها ابن القيم كثيراً في مجالسه وكتبه وأن الأولى اتباع الحق وقبوله من أي شخص كان وقد ذكر الباحث ذلك في منهج ابن القيم للحكم على المعلومات .

وانتشرت الطرق الصوفية المنحرفة التي اعتادت الإقامة في زوايا خاصة تقام فيها حلقات الذكر طبقاً لأشكال معينة من الرقص واللعب ويعمل فيها الدراويش أعمالاً بدعية كوضع الخطوط على النار واللعب بالحيات وغرس السكاكين في الأجساد وقد جاهد ابن القيم تلك الصور البدعية وأظهر فسادها في بعض كتبه الشهيرة كالمدارج والإغاثة وغيرهما .

إن هذه البيئة بحسناتها ونشاطها العلمي نسبياً ، وسيئاتها من الجمود والتقليد – وغيرهما – أثرت في نفس ابن القيم مما جعله يشمر عن ساق الجد والبذل والجهاد وتجديد هذا الدين مما علق به من الأخطاء العلمية والعملية السلوكية كالبدع والخرافات والانحرافات وغيرها .. وامتُحِن بسبب ذلك كثيراً حتى سجن مراراً مع شيخه وكذلك وحده .

٤- خلقه وعبادته :

لقد تميز ابن القيم بحسن الخلق والتبتل الدؤوب وقد ذكر أبو زيد (١٤١٢هـ) أن مترجمي سيرة ابن القيم أطبقوا على أنه كان حسن الخلق لطيف المعاشرة ، طيب السريرة ، عالي الهمة ، ثابت الجنان ، واسع الأفق ، معدوداً من الأكابر في السمت والصلاح والعلم والفضائل والتهجد والتعبد ، ثم نقل أبو زيد نقولاً وأقوالاً لبعض معاصري ابن القيم منهم ابن كثير وابن رجب ، قال ابن كثير : ((وكان حسن القراءة والخلق ؛ كثير التودد ، لا يحسد أحداً ولا يؤذيه ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله ، والغالب عليه الخير والأخلاق الفاضلة))

وقد بلغ في العبادة شأواً عظيماً وقد ذكر مترجموه عن مشاهدة وعيان من أمور عبادته وزهده وصدق لهجته ما يبعث الدهشة والاستغراب .. ولعل هذا مما أعطى كلامه نوراً وأثراً في النفوس وقبولاً عند جميع طوائف الناس يقول تلميذه ابن رجب : ((وكان رحمه الله تعالى ذا عبادة وتهجد ، وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتأله ولهج بالذكر ، وشغف بالمحبة ، والاستغفار ، والافتقار إلى الله ، والانكسار له ، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته لم أشاهد مثله في ذلك ، ولا رأيت أوسع منه علماً ، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه ، وليس هو المعصوم ولكن لم أر في معناه مثله . وقد امتحن وأوذي مرات ، وحبس مع الشيخ تقي الدين بالقلعة منفرداً عنه ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ . وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر ، ففتح عليه من ذلك خير كثير وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة ، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والدخول في غوامضهم ، وتصانيفه ممتلئة بذلك ، وحج مرات كثيرة ، وجاور بمكة . وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يُتعجبُ منه)) ، وقال ابن كثير : ((لا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه ، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً ، ويمد ركوعها ، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان ، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله)) .

٥- أعماله وجهوده :

اجتمعت في شخصية ابن القيم كثير من الكمالات الإنسانية من الإيمان والعقل والفهم والخلق وأصبح مدرسة في العلم وقدوة في السلوك ورائداً في الخير فاجتمع فيه شخصية العالم والداعية والمربي مع ارتباطه العظيم بالعلم ، والمثابرة على ذلك تعليماً وإقراءً ودرساً وتأليفاً وتتمحور أعماله المهمة في

ثلاثة جوانب : التعليم والإفتاء ، والتأليف ، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

أ- التعليم : وتشمل كما ذكر أبو زيد (١٤١٢هـ) الإمامة في الجوزية ، التدريس بالصدرية ، التصدي للفتوى .

فقد درس في الجوزية وأخذ العلم عنه خلق كثير من حياة شيخه إلى أن مات فانتفعوا به وكان الفضلاء يعظمونه ويتتلمذون له ، ودرَّس في الصدرية سنة ٧٤٣هـ واستمر في تعليم الناس وتقريب العلم لطلبة العلم حتى خرَّج طلاباً مجيدين أصبحوا فيما بعد علماء بارزين ، أما تصدِّيه للفتوى والمناظرة فقد أصبح الناس يرجعون إليه في أسئلتهم ، يقول الذهبي : ((كان من عيون أصحاب ابن تيمية وأفتى ودرَّس وناظر وصنف وأفاد)) ، بل وصل الأمر أن سجن وأوذي بسبب بعض فتاويه ، وحكى هو في مواضع من مؤلفاته مناظرات وقعت بينه وبين أهل زمانه ومن أشهر هذه الفتاوى :

١- مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد . فهو يرى أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يعتبر واحدة , وحصل له من جراء ذلك أذى خاصة مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره .

٢- إنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل :

إذ كان في ذلك الوقت شد الرحال إلى قبر الخليل معدوداً من القربات .. وذلك نتيجة لانتشار البدع .. فأنكر ابن القيم ذلك ونعى على معاصريه عامتهم وخاصتهم وبين أن شد الرحال له من الأمور المنكرة في الدين والبدع المخالفة للصراط المستقيم فأحدث ذلك صراعاً عجيباً أُوذي وسجن بسببه .. إلى غير ذلك من المسائل التي ردها ابن القيم لمخالفتها الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح .

ب- التأليف :

والتأليف عند ابن القيم أعطاه سمعة عظيمة ونفعاً كبيراً وتخليداً لكثير من الآراء الصادقة المعتدلة المقتفية طريق السلف ، والتأليف عنده كما يقول أبو زيد (١٤١٢هـ) : ((موطن الجمال والجلال والجاذبية الغريبة في حياة ابن القيم العلمية اللامعة ، المتألق نجمها على مدى سبعة قرون ، يتجاذبها الناس بالدرس والفحص والقراءة والإقراء ، ويكفي أنها بالجملة محل إعجاب من أنصاره وخصومه على حدٍّ سواء ، يقول ابن رجب : ((وصنف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلوم وكان شديد المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه)) (ص ٧٢) .

ج- الدعوة إلى الله تعالى :

وقد كان ابن القيم داعية إلى الله تعالى متحلياً بالصفات الحميدة سالكاً الوسائل الحسنة في ذلك ومن جملة دعوته قيامه بالتدريس والتوجيه والإفتاء وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويدل لذلك ما تصدى به لمعاصريه من إنكار شد الرحل لزيارة قبر الخليل والتوسل بالأنبياء ومن ذلك تغيير المنكرات في زيارته للمسجد الحرام يقول أبو زيد (١٤١٢هـ) : ((تغييره منكر ضَرْبِ الدف والغناء في المشاعر المقدسة مراراً في مسجد الخيف يقول ابن القيم : وقد أخرجناهم منه بالضرب والنفي مراراً ورأيتهم يقيمونه بالمسجد الحرام نفسه والناس في الطواف فاستدعينا حزب الله وفرقنا شملهم))

٦- منهجه في البحث والتأليف :

إن ابن القيم من المكثرين من التأليف ويغلب على تآليفه الجودة ، وسلاسة العبارة ، وقوة المعنى ، وتحريك النفوس ، وتشويقها إلى المعالي ، وتأصيل العلم وبنائه على أسس قوية ولقد ذكر أبو زيد (١٤١٢هـ) أحد عشر خصِّيصة ،

وميزة لتآليف ابن القيم ، سيذكر الباحث المهم منها :-

الأولى : الاعتماد على الأدلة من الكتاب والسنة :-

هذه أبرز خصائص المدرسة السلفية التي قام بنشرها ابن القيم رحمه الله تعالى على أنقاض الرد إلى محض الآراء ، ومستبعد الأقيسة وفاسد التأويل . وقد ذكر الباحث هذه الميزة في منهج ابن القيم للحكم على المعلومات واعتماد ابن القيم على النقل من الكتاب والسنة .

الثانية : السعة والشمول : وذلك يتمثل في أمرين :-

أ- أنه إذا بحث مسألة أشبعها وأبدأ فيها وأعاد واستشهد لها ودلّل مع المناقشة حتى يعطيك خلاصة ذلك في عبارات وجيزة متعانقة .

ب- كتابته في معارف متعددة وهذا يغلب على معظم علماء السلف .. إلا أن ابن القيم كما وصفه معاصروه وتلامذته .. علّم وكتب في الفقه وأصوله والتفسير والحديث وعلله والتوحيد وكذلك السلوك .. وهو ما يطلق عليه الآن تقريباً بعلم النفس ، وقد تكلم في هذا الجانب كلاماً حسناً كما أشار لذلك ابن رجب فقال : ((وكان عالماً في السلوك ..)) ويقول عفيفي (١٤٠٩هـ) أثناء مقدمته لكتاب الإغاثة : ((والكتاب في مجموعه – ينقسم إلى أبواب – ففي أوله ذكر أمراض القلوب وعللها وما ينتابها وعالجها معالجة علمية صحيحة ، فيما نسميه نحن في عصرنا " بعلم النفس ")) (ص : ١٨) ويقول الشناوي (١٤١٦هـ) : ((الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية من أئمة السلف المحدثين في الفقه والسيرة والتفسير وكذلك كثير في شؤون الحياة التي تناولها من منطلق إسلامي عميق والمتصفح لكتاباته والقارئ لها بتمعن يلمس أن هذه الكتابات قد تناولت في عمق وتمكن كثيراً من الجوانب يدخلها الباحثون المتخصصون تحت مفهوم الشخصية)) (ص ٥) ويرى الباحث أن ابن القيم قد تكلم أيضاً عن الحياة

الطيبة ووسائلها بل وقف حياته كلها لبيانها وتحقيقها وهذا يسمى في مصطلح علم النفس بالصحة النفسية ، وتكلم كذلك عن العلم والمعرفة والتفكير والعمليات العقلية فضلاً عن كلامه الجميل عن الأمراض والعلل الجسمية والقلبية والنفسية وعلاجها ، وكلامه عن النمو ومراحله فابن القيم نجده يتكلم في كل فن وإذا تكلم أجاد مع اتسامه بالاستدلال والمناقشة واستخدام العقل والنقل والملاحظة والتجربة .

الثالثة : مظهر الانطباع بتفهم محاسن الشريعة وحكمة التشريع :-

يقول أبو زيد (١٤١٢هـ) : ((فمن يقرأ كتب ابن القيم يلمس منه نفساً شفافة لها بصر وعناية بتفهم مقاصد الشريعة ومحاسنها وحكمة الأحكام وأسرارها بما يشفي ويكفي ويجعل النفس في راحة وانشراح)) (ص : ١١٠) ثم ذكر أبو زيد باقي الخصائص ، وهي : تقديم أقوال الصحابة ﷺ على من سواهم ، الاستطراد التناسبي ، عنايته بعلل الأحكام ووجوه الاستدلال ، الحيوية والمشاعر الفياضة بأحاسيس مجتمعة ، الجاذبية في أسلوبه وبيانه ، حسن الترتيب والسياق ، ظاهرة التواضع والابتهال .

٧- مؤلفاته وتلاميذه :

ذكر أبو زيد (١٤١٢هـ) أن المترجمين لابن القيم والباحثين في سيرته اختلفوا في تعداد كتبه وتفاوت تعدادهم فيما بين (١٩) إلى (٥٠) إلا أن أبا زيد ذكر أنه بعد تتبع أسماء مؤلفاته من ثنايا كتبه ومن غيرها فبلغ مجموعها (٩٨) كتاباً والمطبوع منها (٣٣) كتاباً ومن أبرز مصنفاته المطبوعة :-

١- زاد المعاد في هدي خير العباد .

٢- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين .

٣- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان .

٤- بدائع الفوائد .

٥- تحفة المودود في أحكام المولود .

٦- تهذيب مختصر سنن أبي داود .

٧- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .

٨- الروح .

٩- الفوائد .

١٠- روضة المحبين ونزهة المشتاقين .

١١- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة .

١٢- أعلام الموقعين عن رب العالمين .

١٣- مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والإرادة .

١٤- الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، المشهورة بالنونية .

١٥- الوابل الصيب من الكلم الطيب .

١٦- طريق الهجرتين وباب السعادتين .

أما تلاميذه الذين أخذوا عنه فلا يحصون عدداً نظراً لجلوسه للتدريس كثيراً وفي عدة أماكن ، ومن أبرز هؤلاء كما ذكرهم الحجاجي (١٤٠٨هـ) وأبو زيد (١٤١٢هـ) :-

١- الحافظ ابن كثير (٧٠١هـ - ٧٧٤هـ) وهو إسماعيل بن عمر بن كثير القيسي البصروي الشافعي صاحب التفسير المشهور ، والبداية والنهاية وغيرهما . وكان من أصْحَبِ الناس لشيخه كما ذكر هو عن نفسه .

٢- الحافظ ابن رجب (٧٣٦هـ - ٧٩٥هـ) عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي حافظ للحديث من العلماء له كتاب شرح جامع الترمذي ، وجامع العلوم والحكم بشرح الأربعين ، والذيل على طبقات الحنابلة .

٣ – شمس الدين بن عبد الهادي (٧٠٥ هـ – ٧٤٤ هـ) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي ، وكان رأساً في القراءات والحديث والفقه والأصلين " الفقه والتوحيد " والعربية واللغة .

٤- الذهبي (هـ – ٧٤٨هـ) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي التركماني الشافعي الإمام الحافظ صاحب التصانيف الكثيرة في الحديث والتاريخ وغيرهما .

٥- ابنه برهان الدين إبراهيم صاحب فقه ومعرفة بالعربية .

٨- وفاته وأقوال العلماء فيه :

توفي رحمه الله وقت عشاء الآخرة ليلة الخميس في الثالث والعشرين من رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وصُلي عليه من الغد بالجامع عقيب الظهر ثم بجامع جراح ، ودفن بمقبرة الباب الصغير وشيعه خلق كثير ورؤيت له منامات كثيرة حسنة . وقال فيه ابن كثير : ((وقد كانت جنازته رحمه الله حافلة شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة وتزاحم الناس على حمل نعشه وكمل له من العمر ستون سنة رحمه الله)) ، وقد مر ثناء العلماء عليه وسيرته وعلمه ويكفي في ذلك ما قاله القاضي برهان الدين الزرعي ((ما تحت أديم السماء أوسع منه علماً درس بالصدرية وأمَّ الجوزية وكتب بخطه مالا يوصف كثرة ، وصنف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلوم وكان شديد المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصانيفه واقتناء كتبه واقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره)) (الجواب ١٦) .

وبعد هذا التجوال في السيرة العطرة لهذا الإمام المسلم العالم المجاهد لا يملك الباحث إلا الدعاء له بأن يرفع الله درجة هذا الإمام في عليين ويجعل له لسان صدق في الآخرين وأن يجمعنا وإياه في الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

الدراسات السابقة

إن ابن قيم الجوزية من العلماء الكبار الذين ضربوا في كل فن بسهم ، وكان رحمه الله من المكثرين كتابة وتأليفاً فأصبح بستاناً يضم بين جوانبه شتى أنواع الثمار ، فأخذ العلماء الأقدمون والباحثون المحدثون في نبش هذا الكم الهائل من المعلومات كل حسب اتجاهه وتخصصه .. وقد وجد الباحث ما يزيد على ستين رسالة ماجستير ، ودكتوراه في ابن القيم رحمه الله وكان معظمها في العلوم الشرعية وذلك في الفقه وأصوله أو العقيدة أو الاقتصاد وقليل منها في التربية ولا يوجد شيء البتة في الجوانب السلوكية النفسية وإن كانت ترتبط مع الرسائل التربوية برباط قوي ، وقد رأى الباحث ترك مالا يتصل مع بحثه مباشرة واقتصر مع ما يتصل مع البحث لكي يطلع عليها القارئ وذلك بذكر خلاصتها . إلا أن من الجدير ذكره أن الذين كتبوا عن ابن القيم رحمه الله في العلوم التربوية والنفسية كتابتهم على ثلاثة أوجه :

١- الدراسات العلمية " ماجستير ، دكتوراه " وكلاهما في التربية وهما رسالتان : الأولى رسالة ماجستير وهي " التربية الجسمية في الإسلام مع التركيز على كتاب الطب النبوي لابن قيم الجوزية " لسمية (١٤٠٨هـ) والثانية رسالة دكتوراة وهي " الفكر التربوي عند ابن قيم الجوزية " للحجاجي (١٤٠٨هـ) .

٢- البحوث العلمية و لم يجد الباحث سوى بحثين اثنين حول العلاج النفسي عند ابن القيم رحمه الله (المطيلي ١٤١٣هـ) والشخصية (الشناوي ١٤١٦هـ)

٣- فصول في بعض الكتب وذلك عند (فهمي ١٤٠٧هـ ، ونجاتي ١٤١٤هـ)

وهنا يرى الباحث الاقتصار على الوجهين الأخيرين وذلك لعلاقتهما الواضحة بموضوع البحث وبعلم النفس بشكل عام .

أولاً – البحوث العلمية :

أ- قام المطيلي (١٤١٣هـ) بإجراء دراسة نظرية حول العلاج النفسي لدى ابن قيم الجوزية حيث قسم البحث إلى ثمانية فصول هي :

أولاً : تمهيد حول العلاج النفسي عند ابن قيم الجوزية .

ثانياً : معرفة الله ومعرفة النفس ، وأثرهما على الإنسان توحيداً وعبادة .

ثالثاً : أقسام النفس وذكر أن النفس واحدة ولها حالات ثلاث .

رابعاً : أمراض القلب وأن ابن قيم الجوزية قسمها إلى قسمين : مرض شبهة ومرض شهوة .

خامساً : مفهوم الطبيب الكامل ، وقد أبدع الكاتب في إخراج هذا الجزء ، وذكر أركاناً عديدة وهي : المرض ، المريض ، العلاج ، الوسيلة ، الطريقة ، هدف العلاج .

سادساً : وصل إلى تصور نظري للعلاج النفسي ذاكراً تقنيات العلاج وهي : إزالة المرض بالضد ، التفويض ، تدليل المريض ، التأسي ، التماس العوض ، العلاج بالتخيل ، الإثارة الانفعالية .

سابعاً : تقويم ونقد ومقارنة بين العلاج النفسي الحديث وما يقوله ابن قيم الجوزية رحمه الله .

ثامناً : الخلاصة . وقد خلص الباحث إلى أن طب القلوب كما مارسه وجربه ابن قيم الجوزية رافد هام من روافد العطاء العلمي للمسلمين وإسهاماتهم في تاريخ الطب النفسي .

وحقيقة أن هذه الدراسة مختصرة وسريعة وجيدة في بابها ، وتمتاز بالانتقاء القوي المناسب وحسن الصياغة ولكن لقلتها لم تستوعب بعض الكتب المهمة للعالم المسلم ، وكذلك لم يذكر الباحث مقارنات مع العلاج النفسي الحديث والدراسة الحالية تعمل على تناول بعض الجوانب المرتبطة بالصحة النفسية

بشيء من التوسع والاستقراء والوصول إلى نتائج قد تكون لها فائدة إن شاء الله .

ب- قام الشناوي (١٤١٦هـ) بإجراء دراسة نظرية عن خصائص شخصية المسلم في كتابات ابن قيم الجوزية رحمه الله حيث قسم الدراسة إلى تسعة فصول ومقدمة حيث ذكر تعريف الشخصية في الدراسات النفسية ونظرياتها ثم دخل في صلب البحث معنوناً له بملامح شخصية المسلم في فكر الإمام ابن قيم الجوزية مدرجاً تحته تسعة فصول هي :

أولاً – الإنسان باعتباره مخلوقاً ذا خصوصية ذاكراً أنه يتميز بالتكريم والتكليف ، والمسؤولية ، والعبودية .

ثانياً – بنية الشخصية وذكر تحته وحدة النفس وحالاتها ، وسمات الشخصية ، والجوانب المعرفية والانفعالات .

ثالثاً – الوسطية والاعتدال في شخصية المسلم ، وان ضابط هذا العدل هو الأخذ بالوسط بين طرفي الإفراط والتفريط .

رابعاً – الجوانب المعرفية للشخصية ، وذكر تأكيد ابن قيم الجوزية على أن العمليات المعرفية هي المحرك الأساسي للسلوك والانفعال .

خامساً – الانفعال " السلوك الوجداني " .

سادساً – الفروق الفردية .

سابعاً – نمو الشخصية .

ثامناً – اضطرابات الشخصية .

تاسعاً – العلاج النفسي ، وخلص الباحث إلى بعض النتائج نذكر منها :

١- أن الإنسان مخلوق ذو خصوصية في الخلق والتكريم .

٢- أن الإنسان مخلوق لعبادة الله وأنه مولود على الفطرة وهي الإسلام .

٣- إن النفس الإنسانية واحدة وبداخلها أحوال تطرأ عليها فتكون مطمئنة أو لوامة أو أمارة بالسوء .

٤- إن الظاهر الذي يبدو هو إما قلب صحيح التزم صاحبه بالإيمان أو قلب مريض قد رضخ صاحبه للشيطان .

٥- يرى ابن قيم الجوزية أن أفضل منهج تنمو فيه شخصية المسلم الطاعة لله، والخوف والرجاء ، ومحاسبة النفس وقطع الخواطر والأفكار من بدايتها والموازنة بين مطالب الدنيا ولذتها ، ومطالب الآخرة ولذتها مع كون الآخرة أولى ، ثم انتهى إلى أن النموذج الذي نستقرؤه من كتابات ابن قيم الجوزية والذي فصله على أساس من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، هو نموذج شامل لتفسير سلوك الإنسان سواء في المعانية الدنيوية أو عمله وسعيه للآخرة .

إن هذه الدراسة من الدراسات الجيدة خاصة أن الذي قدمها صاحب تخصص ، وكذلك يملك خبرة علمية ، وقد امتازت هذه الدراسة بعدة مزايا :

أولاً – بتبويبها الجيد وحسن تنظيمها وسلاسة أفكارها .

ثانياً – ذكر وجهة نظر الدراسات النفسية الحديثة حول الموضوع المبحوث

ثالثاً– جودة العثور على الكلمات والمعاني التي ذكرها ابن قيم الجوزية وهي المبثوثة في كثير من كتبه وإن كان الباحث اقتصر على بعض الكتب .

رابعاً – إتقان المقارنة بين الدراسات النفسية الحديثة حول الشخصية وكتابات وآراء ابن قيم الجوزية رحمه الله مما ميز البحث بالقوة والأصالة مع التجديد .

خامساً– أخذ الباحث – الشناوي – قصب السبق في معالجة موضوع الشخصية عند ابن قيم الجوزية –إلا أنه مع وجود هذه المزايا فلا يخلو البحث من بعض الهنات منها :

١- اقتصار الباحث على بعض الكتب وقد ذكرها وهي ، الإغاثة ، أعلام الموقعين ، المدارج ، تحفة المودود ، الفوائد ، وهذه الكتب مناسبة وجيدة إلا أنه ترك بعض الكتب التي تحتوي على معلومات قيمة خاصة للشخصية ككتاب زاد المعاد ، عدة الصابرين ، مفتاح دار السعادة ، وغيرها كثير .

٢- يبدو من استقراء البحث أن الباحث لم يتعمق كثيراً ولم يجْرِد الكتب المشار إليها آنفاً قراءة وتحليلاً وذلك بسبب قلة العبارات المذكورة .

٣- أغفل الباحث موضوعاً مهماً في الشخصية وهو سواءها واضطرابها أو سمات الشخصية السوية والمضطربة وتحديد المعيار الذي يراه ابن قيم الجوزية لتحديد استقامة السلوك واعوجاجه مع العلم أن الباحث ذكر سمات الشخصية عند ابن قيم الجوزية إلا أنه غلب على العنصر ذكر الفرق بين المتشابهات والمقارنة بينها كالحسد والمنافسة وما شابهها .

ثانياً : الكتب المطبوعة

أشار فهمي (١٤٠٧هـ) في كتابه الصحة النفسية في الفصل الثالث عشر إلى دراسة بعنوان " عرض وتحليل لكتاب إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية " إعداد حمزة المالكي - أحد طلاب الدراسات العليا بقسم علم النفس بجامعة أم القرى - حيث تناول الباحث أهم محتويات الكتاب والتي تدور حول مايلي

- الموضوع الأول : أ- حول القلوب وهي :

١- القلب السليم . ٢- القلب الميت . ٣- القلب المريض .

ب- حقيقة مرض القلب .

- الموضوع الثاني : أ- أنواع الأمراض التي تصيب القلب :

١- نوع لا يتألم به صاحبه في الحال كالجهل والشبهة .

٢- نوع يتألم منه صاحبه في الحال كالهم والحزن .

ب- علامات مرض القلب ، وعلامات صحته .

- الموضوع الثالث : تشخيص أمراض القلب

ويذكر الأصول الثلاثة في العلاج :

١- حفظ القوة عن طريق الإيمان .

٢- الحمية عن المؤذي الضار .

٣- استفراغه من كل مادة فاسدة .

- الموضوع الرابع : علاج أمراض القلب :

١- العلاج بالدواء الطبيعي .

٢- العلاج بالأدوية الإيمانية أو الشرعية :

أ- حفظ قوة القلب .

ب- الحمية عن المؤذي الضار .

ج- استفراغه من المواد الفاسدة .

٣- علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه .

تتميز هذه الدراسة بالعرض والتبويب ، إلا أن فهمي لم يوضح سبب وضعها تحت مسمى الصحة النفسية ، كذلك لم يظهر مقارنة هذه الدراسة مع ما يقوله المتخصصون النفسيون ولعله جعلها تحت مسمى الصحة من باب الطب العلاجي المبني على التشخيص ورصد الأعراض ووضع العلاج .

كما ضمن نجاتي (١٤١٤هـ) جزءاً عن ابن قيم الجوزية في كتابه الدراسات النفسية عند العلماء المسلمين حيث قسم كلامه عن ابن قيم الجوزية إلى تسعة عناصر :

أولاً : حقيقة النفس .

ثانياً : الحواس والإدراك الحسي .

ثالثاً : العقل .

رابعاً : الحاجات والدوافع .

خامساً : الانفعالات و العواطف ، مركزاً على الحزن والخوف والمحبة والشوق والعشق .

سادساً : اللذة والألم .

سابعاً : النمو .

ثامناً : أمراض القلوب .

تاسعاً : تأديب الأطفال ، وقد نقل فصولاً جيدة من كتب ابن قيم الجوزية إلا أنه لم يستوفِ بعض الكتب المهمة ، زيادة على أنه لم يقارنها مقارنة واضحة مع ما يقوله الدارسون النفسيون ، وإنما أحياناً إذا وجد فكرة أو قولاً لابن قيم الجوزية تقارب ما قاله أولئك أشار إليه إشارة عابرة دون تعقيب ومقارنة ، وعلى كل فهي دراسة جيدة وأُنموذج مناسب لدراسة علماء الإسلام في رصد السلوك وأعمال القلوب وغيرهما .

تعليق عام على الدراسات السابقة

هذه الدراسات السابقة والإشارات التي وردت في بعض الكتب خطوات جيدة في شق هذا الطريق الوعر الشاق الذي يحتاج كما قال بدري (١٤٠٩هـ) :

أولاً : إلى تعمق في مواد علم النفس الغربي ومناهجه وممارساته .

ثانياً : إلى إلمام عام بالإسلام نفسه بأصوله ومصادره الأساسية .

ثالثاً : وهذا الجانب – الأكثر أهمية – يحتاج إلى تفكير ابتكاري خلاق وقدرة على الربط بين مقاصد الدين وبين ما هو مقبول في علم النفس الغربي ولذا فلا غرابة أن يقع في هذه الخطوات بعض الكبوات ، ويقع في هذه الدراسات بعض الهنات .. إلا أن ما يريد الباحث الكلام عنه لم يتطرق إليه أحد من هؤلاء إلا إشارات غير مباشرة وعامة ، فالأولى ركزت بشكل كبير حول العلاج والثانية حول الشخصية والثالثة حول العلاج أيضاً ، أما الرابعة فهي

جامعة لبعض جوانب علم النفس مع أنها أهملت الكلام عن الصحة النفسية ، وعلى كلٍ فإنها جميعاً أغفلت الكلام حول الصحة النفسية والسعادة القلبية والحياة الطيبة سواءً عن المفهوم أو مرتكزات تحقيقها . أو عن حدود التوافق والتعامل مع النفس والمجتمع ومعايير تحديد السواء والاضطراب ، وقد أكثر ابن قيم الجوزية رحمه الله الكلام حول هذه المفاهيم وأبدع في الكلام عنها وهذا ما جعل الباحث يرى أهمية إبراز هذا الجانب عند هذا العالم خاصة أنه لم يتطرق إليه أحد من قبل .. مع أهمية هذا الموضوع في الدراسات النفسية بله وعند الناس ، إذ إنه أملٌ ومطلب يرجوه كل إنسان مسلم .

الفصل الثالث

- منـهج الدراسة
- حدود الـــــــدراســـة

أ- منهج الدراسة :

سوف يستخدم الباحث منهج تحليل المعلومات وذلك باستخراج النصوص التي لها علاقة بالموضوع من كتب ابن قيم الجوزية وتحليلها ومقارنتها بالدراسات النفسية الحديثة ، حيث إن منهج تحليل المعلومات هو المنهج التأريخي الذي يتناول دراسة المصادر والكتب وغيرها ثم نقد وتحليل هذه المعلومات لإثبات الفروض والوصول للنتائج .

(عبيدات وآخرون ، ١٩٨٩م ، جاي ، ١٩٩٣م)

حدود الدراسة :

تتحدد هذه الدراسة بتوضيح مفهوم الصحة النفسية وسبل تحقيقها عند ابن قيم الجوزية دون التطرق لغيره من المفاهيم النفسية التي برزت في كتابات هذا العالم المسلم مع التركيز على بعض كتبه مثل زاد المعاد ، ومدارج السالكين ، والجواب الكافي ، وإغاثة اللهفان ، والروح ، وشفاء العليل ، والفوائد ، والطب النبوي ، ومختصر الصواعق المرسلة ، ومفتاح دار السعادة والوابل الصيب ، وطريق الهجرتين ، ثم كذلك بعض الأبحاث والدراسات النفسية حول مفهوم الصحة النفسية .

الفصل الرابع

- مفهوم الصحة النفسية عند ابن قيم الجوزية رحمه الله .
- مرتكزات تحقيق الصحة النفسية .
- التوافق ، حدوده ، وعوائقه .
- السواء والاضطراب والمعيار لتحديدهما .
- منهج ابن القيم للحكم على المعلومات .
- خلاصة ما خرج به الباحث لتحقيق الصحة النفسية " الحياة الطيبة " من وجهة نظر ابن قيم الجوزية.

مفهوم الصحة النفسية عند ابن القيم رحمه الله

أهمية الصحة النفسية " الحياة الطيبة " :

أكد ابن القيم على أهمية الصحة النفسية التي يسميها السعادة القلبية أو الحياة الطيبة المتصلة بالإنسان وأنه ينبغي معرفتها تفصيلاً والمحافظة عليها فقال ((ولما كانت الصحة من أجل نعم الله على عبده ، وأجزل عطاياه ، وأوفر منحه ، بل العافية أجل النعم على الإطلاق فحقيق لمن رزق حظاً من التوفيق مراعاتها ، وحفظها ، وحمايتها عما يضرها)) وبين أن ذلك لا يتأتى إلا عن طريق المعرفة والتطبيق لذلك فقال : ((يحتاج الإنسان لأمرين بهما يتم سعادته وفلاحه : **أحدهما** : أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ويكون له بصيرة في ذلك بما شهده في العالم وما جربه في نفسه وغيره وما سمعه من أخبار الأمم قديماً وحديثاً **الأمر الثاني** : أن يحذر من مغالطة نفسه على هذه الأسباب))
(الجواب : ٤١)

وهو يطلق على مفهوم الصحة النفسية مفهوم الحياة الطيبة أو السعادة القلبية فيقول في الحياة الطيبة : ((فالوحي حياة الروح كما أن الروح حياة البدن ولهذا فمن فقد هذه الروح فَقَدْ فَقَدَ الحياة النافعة في الدنيا والآخرة ... وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته فقال تعالى :
مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ (النحل : ٩٧)
وقد فسرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضى والرزق الحسن وغير ذلك ، والصواب أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه ، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها ولا نعيم

فوق نعيمه إلا نعيم الجنة ، وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح فإنه ملكها وهذه الحياة تكون في الدور الثلاث ، أعني دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار)) (مدارج ، ج ٣ : ٢٢٣) ، وهو يربط الحياة الطيبة بطاعة أوامر الله واجتناب نواهيه ، ولذا قال : ((وأنه إذا خولف أمره ونهيه ترتب عليه من النقص والفساد والضعف والذل والمهانة ، والحقارة ، وضيق العيش ، وتنكد الحياة ما ترتب ، كما قال تعالى :

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾

(طه : ١٢٤)

وفسرت المعيشة الضنك : بعذاب القبر ، والصحيح أنها في الدنيا وفي البرزخ فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله ، فله من ضيق الصدر ونكد العيش وكثرة الخوف وشدة الحرص والتعب على الدنيا والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها ، والآلام خلال ذلك)) (مدارج ، ج ١ : ٤٢٢) ، أما السعادة الكلية فأشار إليها حين قسم السعادة إلى عدة أنواع وجعل في قمتها السعادة القلبية فقال : ((إن أنواع السعادة التي تؤثرها النفس ثلاثة :

السعادة الأولى : سعادة خارجية عن ذات الإنسان بل هي مستعارة له من غيره تزول باسترداد العارية وهي سعادة المال والحياة .

السعادة الثانية : سعادة في جسمه وبدنه كصحته واعتدال مزاجه وتناسب أعضائه وحسن تركيبه وصفاء لونه وقوة أعضاءه فهذه ألصق به من الأولى ولكن هي في الحقيقة خارجة عن ذاته .

السعادة الثالثة : هي السعادة الحقيقية وهي سعادة نفسانية روحية قلبية ، وهي سعادةُ العلم النافع ثمرته فإنها هي الباقية على تقلب الأحوال والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره وفي دُورِه الثلاث)) (مفتاح ، ج١ : ١٠٨) .

وابن القيم جعل السعادة نتيجة للهدى كما أن الشقاء ثمرة للضلال حيث يقول : ((فإن الأمن والعافية والسرور ولذة القلب ونعيمه وبهجته وطمأنينته مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة ، والخوف والهم والغم والبلاء والألم والقلق مع الضلال والحيرة)) (إغاثة ، ج٢ : ٢٤٨) .

ومن خلال ذلك يتضح أن ابن القيم يرى أن السعادة الحقيقية هي سعادة القلب والروح والنفس وأن ذلك لا يأتي إلا بهدي من الله تعالى كما أنه يرى أن الحياة الطيبة الهانئة المطمئنة نتاج طبعيٌ للإيمان بالله والعمل الصالح ، كما أنه يرى أن السعادة ممتدة ومصاحبة للإنسان في دنياه وقبره وآخرته معتمداً في قوله على أدلة القرآن الكريم ، أما الدراسات النفسية الحديثة فتركز على السعادة الدنيوية واختلفوا في سبب إيجادها فمنهم من ربطها بتلبية الحاجات البدنية ، ومنهم من ربطها بالتوافق والتلاؤم مع النفس والمجتمع ، وآخرون يربطونها بمواجهة الأزمات معتمدين بذلك على أقوال المتخصصين وتجاربهم وآرائهم .

إن ابن القيم يتفق مع الدراسات النفسية على أهمية طلب الحياة السعيدة الطيبة وأن كل إنسان يؤثرها ويطلبها ، إلا أنه جعل السعادة والحياة الطيبة أكثر امتداداً منها عند علماء النفس فهي تشمل الدور الثلاث : الدنيا ، البرزخ الآخرة ، ومصدرها من الله هبة وأسباباً ، ويبدو أن سبب الاختلاف بينه وبين الدراسات النفسية الحديثة في مفهوم الصحة النفسية يرجع لاختلاف نظرته عنهم حول ثلاثة أمور :

١- أصول الخلق وطبيعة الإنسان .

٢- مصادر التلقي .

٣- غاية الإنسان وهدفه .

حيث يرى ابن القيم أن **أصول الخلق** أصلان : البدن والروح إذ يقول : ((إن الذي عليه جمهور العقلاء أن الإنسان هو البدن والروح معاً ، وقد يطلق على أحدهما دون الآخر بقرينة)) (الروح : ٢٧٦) وقال أيضاً : ((خُلق ابن آدم من الأرض ، وروحه من ملكوت السماء وقُرن بينهما))
(الفوائد : ٢٤٢)

ويرى ابن القيم أن طبيعة الإنسان خيِّرة ، بل إنه يولد على الإسلام ، ويُطلِق على ذلك الفطرة والمقصود بالفطرة أن الإنسان مفطور على الخير والدين يقول ابن القيم : ((فقد تبين من دلالة الكتاب والسنة والآثار واتفاق السلف على أن الخلق مفطورون على دين الله الذي هو معرفته والإقرار به ومحبته والخضوع له ، وأن ذلك موجب فطرهم)) (شفاء : ٦٤٤) وقال : ((وكذلك في النفوس معرفة العدل ومحبته وإيثاره وأما تفاصيل العدل الذي هو شرع الرب تعالى فلا يعلم إلا بالرسل ، فالرسل تذكر بما في الفطر وتفصله وتبينه)) (شفاء : ٦٤٢) .

بينما علماء النفس اهتموا كثيراً ببدن الإنسان وما يظهر عليه ونظَّروا وجرَّبوا وبالمقابل أهملوا الجانب الآخر المكوِّن للإنسان وهو الروح مما أدى إلى تركيز جل اهتمامهم وتجاربهم على البدن وإسعاده يقول نجاتي (١٤٠٩هـ) : ((إن اقتصار علم النفس الحديث على المنحى المادي الموضوعي والالتزام بمناهج البحث الموضوعية في دراسة الإنسان لم يمكننا حتى الآن من فهم الإنسان فهماً سليماً ، ومن الحصول على معرفة دقيقة وصحيحة عن الشخصية)) (ص : ٢٤٨) ، ويقول أيضاً : ((إن ذلك أدى إلى عدم اهتدائهم إلى تكوين مفهوم واضح دقيق للصحة النفسية)) (ص ٢٧٦) أما طبيعة الإنسان في الدراسات النفسية فهم مختلفون فيها " فالتحليليون يرون أن الإنسان ذو نزعة للشر تحكمها غريزة العدوان أو يحكمه دافع النزوع إلى القوة

والسيطرة على حين أن السلوكيين تعاملوا مع الإنسان أنه ذو طبيعة محايدة ، لا خير فيها ولا شر ، وأن كل سلوك يسلكه الإنسان هو سلوك متعلم ، أما الإنسانيون فيرون أن الإنسان خيِّر بطبيعته وأن الشر غريب عليه))

(الشناوي ، ١٤٠٩هـ ص ٣) .

هذا ما جعلهم يضطربون كثيراً فيما يناسب الإنسان ويحقق صحته وسعادته أهو التوازن الداخلي ؟ أو حسن التعلم ؟ أو الحرية المطلقة بشرط عدم إلحاق الضرر بالآخرين ؟ إن ابن القيم يؤكد على نظافة الداخل أصلاً وأنه لا بد من التعلم ليعرف الخير مفصلاً ، وأن الإنسان يملك إرادة واختياراً ليسلك أهدى السبيلين ، ولذا يبدو أن أقرب المدارس نظرة لطبيعة الإنسان الصحيحة هي الإنسانية لكن لغياب مصدر المعلومات الصحيح ، فإن عندهم غموضاً في معرفة أصل الخلق وخيرية الإنسان ، وكذلك عدم وضع حدود سليمة للإرادة والحرية التي ينشدونها .

أما مصادر التلقي عند ابن القيم فهي الحس والعقل والنقل إذ يقول : ((إن طرق العلم ثلاثة الحس والعقل والخبر الصادق " الوحي "))

(الصواعق ص ١٦٩)

بينما في الدراسات النفسية الحديثة يقتصرون على الحس والعقل و لم يهتدوا للنقل وهذا الذي جعلهم يختلفون ، وينشأ من جراء ذلك نظريات متعددة كل نظرية تركز على جانب معين في الإنسان ، مما أدى إلى عدم تحديد مفهوم واضح للصحة النفسية أو السواء وغيرهما ، يقول رجب (١٤١١هـ) ((أن عندهم قد تم استبعاد الوحي استبعاداً تاماً كمصدر للمعرفة وبطبيعة الحال فقد ترتب على ذلك التخلف الذريع في محيط العلوم السلوكية والاجتماعية التي تتعرض بطبيعتها لعالم الإنسان ككائن حي عاقل ذي عقل بذاته وبما حوله مما لا يدرك مباشرة بالحواس)) (ص ١٢)

أما الغاية لدى الإنسان في الدراسات النفسية الحديثة فهي مقصورة على هذه الحياة المرئية المحسوسة وهدفها تحقيق السعادة الدنيوية والتوافق النفسي والاجتماعي ، يقول بدري (١٤٠٢هـ) : ((فالصحة النفسية وعلم النفس في الغرب يهدفان بشكل عام إلى خلق المواطن الصالح الصحي نفسياً المتكيف مع بيئته . جل الأبحاث والدراسات والتطبيقات تهدف لذلك)) (ص : ٢٥) وليس هناك أي ذكر للعبودية لله تعالى وإغفال تام للحياة الأخروية بينما عند ابن القيم فالغاية والحياة الطيبة والصحة النفسية عنده السعادة في الدارين الدنيا والآخرة ، وهدفها تحقيق العبودية لله تعالى عن طريق الإيمان والعمل الصالح .بمفهومهما الواسع الشامل لجميع سلوكيات الإنسان ومشاعره المتضمن لعلاقة الإنسان با لله والنفس والمجتمع .

خصائص الصحة النفسية عند ابن قيم الجوزية :-

أ- نسبية الصحة النفسية :

إن نسبية الصحة النفسية تعني عدم ثبات الصحة والاستقرار النفسي على درجة واحدة لوقت طويل وذلك إما من داخل الفرد أو بسبب العوامل الخارجية الأخرى كالمكان والزمان وغيرهما ، وهذا ما أكدته الدراسات النفسية الحديثة وقد أشار ابن القيم إلى نفس كلامهم ونتيجة تجاربهم فأشار إلى العامل الداخلي بقوله : ((والنفس قد تكون تارة أمارة وتارة لوامة وتارة مطمئنة بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا وهذا ، والحكم للغالب عليها من أحوالها)) (إغاثة ، ج١ : ١٢٩) .

أما العامل الخارجي فأشار إليه بقوله : ((وكلام فضلاء الأطباء أن الصحة بحسب الأمزجة والأزمنة والأماكن والعوائد)) . (الطب : ٥٢٨)

لكنه يختلف عنهم بمتعلق الصحة النفسية أو بعبارة أوضح بالسبب المباشر المحقق لاستمرار الحياة الطيبة ألا وهو تحقيق الطاعة لله تعالى كما مر في مفهوم الصحة النفسية ، ومفهوم النسبية في الصحة عند ابن القيم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الإيمان لأنه يزيد وينقص يزيد بطاعة الله وينقص بمعصيته .

ب - مناهج تحقيق الصحة النفسية :

أشار ابن القيم إلى المناهج المشهورة في الصحة النفسية وهي الإنشائي والوقائي والعلاجي ، لكن إشارته إليها بعبارات أخرى فقال : ((إن قواعد طب الأبدان ثلاثة : حفظ الصحة ، والحمية عن المؤذي ، واستفراغ المواد الفاسدة)) (الطب : ٨٦)

وقال في موضع آخر شارحاً هذا المنهج : ((إذا عرف هذا فالقلب يحتاج إلى ما يحفظ عليه قوته وهو الإيمان وأوراد الطاعات وإلى حمية عن المؤذي الضار ، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات ، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له بالتوبة النصوح واستغفار غافر الخطيئات))
(إغاثة ، ١ :٢٥)

إذاً يتفق كلام ابن القيم مع الدراسات النفسية الحديثة بذكر مناهج الصحة النفسية إلا أنه يختلف عنهم في تفسير هذه المناهج فإنهم يحصرونها كما مر في تحقيق السعادة المؤقتة ويربطونها فقط بالتوافق النفسي والاجتماعي ، أما ابن القيم فيجعلها دائمة ويربطها بالتوافق مع الحق ويدخل ضمناً التوافقان النفسي والاجتماعي .

ج- سمات الشخصية المتمتعة بالصحة النفسية عند ابن القيم :

ذكر ابن القيم عدداً كبيراً من السمات وأغلبها يدور حول الجانب الروحي والقيمي ، وتقويته وبعضها يصلح أن يكون سمة ، وفي نفس الوقت مرتكزاً

وطريقاً لتحقيق الصحة النفسية ، ولكن الباحث اختار ما يغلب عليه أن يكون سمة ومؤشراً يستدل به على صاحب الحياة الطيبة أو المحقق للصحة النفسية ومنها :

١-العبودية :

إذ جعل ابن القيم هذه السمة معلماً مهماً لصاحب السعادة ، وشرفاً كبيراً للإنسان ، وحافظاً له من الأعداء يقول : ((والحق الذي خلق به ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده التي هي كمال محبته والخضوع والذل له ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب)) (روضة : ٧٧) ، وقال : ((وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها ، فهي إنما تحقق باتباع أمره واجتناب نهيه ، معتقد إتباع الأمر واجتناب النهي متبين حقيقة العبودية والمحبة)) (مدارج ، ج ١ : ١١٩) وكل جارحة في الإنسان لها عبودية لله تعالى إذ يقول : ((ومبنى " إياك نعبد " على أربع قواعد : التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح وبيانها أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح وعلى كل منها عبودية تخصه والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح ، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح))
(مدارج ، ج١ : ١٢٩)

إذاً فالعبودية عند ابن القيم وصف لازم دائم يتقلب مع صاحب الحياة الطيبة في تقلبه ظاهراً وباطناً والعبودية لفظ شامل لكل ما يعمله الإنسان أو يتعامل معه ، وهذا المفهوم للعبودية قريب جداً إن لم يكن مطابقاً لتعريف ابن تيمية للعبودية إذ يقول : ((العبودية هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)) (ص : ٣٨) وهذه السمة تغيب في

الدراسات النفسية الحديثة لأن هذا غير واضح عندهم أو غير مؤمنين به بينما هو واضح جلي عند ابن القيم وهذا أخذاً من المصدر الإلهي الذي يخاطب عقل الإنسان وروحه ، يقول إدريس (١٣٩٩هـ) : ((فغاية التربية في الإسلام هي تمكين الإنسان من أن يكون إنساناً حقيقياً أو تمكينه من أن يكون عبداً صالحاً لأن العبودية هي جوهر الإنسانية . والإنسان كلما ارتقى في سلم العبودية ارتقى في سلم الإنسانية فوصف الإنسان بالعبودية هو الوصف الجوهري العام الذي يحتم كل أوصافه إذن فكل فهم لصفة من صفات الإنسان أو خاصة من خواصه يجعلها مناقضة لصفة العبودية فهو فهم خاطئ)) (ص ١٩)

٢-الوسطية :

يشير ابن القيم إلى هذه السمة بقوة ويؤكد عليها كثيراً ويعبر عنها أحياناً بالعدل حيث يقول : ((وما قام الوجود إلا بالعدل فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير)) (مدارج ، ج١ : ٤٥٧) . والعدل صفة لازمة للمؤمن السعيد في اعتقاده وسلوكه ، فقال : ((فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه وخير الناس النمَطُ الوسط ، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين و لم يلحقوا بغلو المعتدين والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف والأوساط محميَّة بأطرافها فخيار الأمور أوساطها))
(إغاثة ، ج١ : ٢٨٥)

فالوسطية هي سمة تدخل في جميع جوانب الإنسان ، وأثناء تفاعله مع الآخرين وابن القيم ذكر لذلك أمثلة في العبادة والأكل والشرب والنكاح والنوم والأخلاق ولعل الباحث يقتصر على ذكر بعضها فيقول عن الأكل

والشرب : ((قال تعالى :

وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ (الأعراف : ٣١)

فأرشد عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطعام والشراب عوض ما تحلل منه وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن في الكمية والكيفية فمتى جاوز ذلك كان إسرافاً وكلاهما مانع من الصحة جالب للمرض أعني عدم الأكل والشرب أو الإسراف فيهما)) (الطب: ٣٦٥) .

وتكلم عن النوم فقال : ((كثرة النوم يميت القلب ويثقل البدن ويضيع الوقت ويورث كثرة الغفلة والكسل وأنفع النوم ما كان عند شدة الحاجة إليه وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات فمدافعته وهجره مورث لآفات أخرى عظام : من سوء المزاج ويبسه وانحراف المزاج وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل ويورث أمراضاً متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها وما قام الوجود إلا بالعدل فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير))
(مدارج ، ج١ : ٤٥٧)

وقال في الأخلاق : ((والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط فيحمله على خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور)) إلى أن قال : ((فإن النفس متى انحرفت عن " التوسط " انحرفت إلى أحد الخُلقين الذميمين ولابد فإذا انحرفت عن خلق " التواضع " انحرفت إما إلى كبر وعُلُو وإما إلى ذل ومهانة وحقارة ، وصاحب الخلق الوسط مهيب محبوب ، عزيز جنابه ، حبيب لقاؤه)) (مدارج ، ج٢ : ٢٩٥)

من خلال هذه النصوص يتضح لنا التوازن والوسطية التي يؤكد عليهما ابن القيم لمريد الصحة والسلامة بدنيـاً ونفسياً ، إن هذه الوسطية أو التوازن لا توجد بهذا المسمى في الدراسات النفسية الحديثة إلا أنهم أشاروا لذلك حين ذكروا مؤشرات الصحة النفسية ومنها التوافق النفسي والاجتماعي وما أشار

إليه عبد الخالق (١٩٩٣م) بالاتزان الانفعالي وهذا حقيقته توازن وكذلك ما تشير إليه المدرسة الإنسانية بخيرية الإنسان وقدرته على البناء النفسي والاجتماعي فالأول رفضاً لحتمية فرويد والثانية رفضاً لحتمية واطسن وملخص ذلك توازن وإن كان ليس تاماً . كذلك أشار مرسي (١٤٠٩هـ) إلى أنه ظهر في تعريف الصحة النفسية تحقيق التوازن الداخلي بين قوى النفس وتحقيق التوازن بين الفرد والمجتمع في علم النفس الحديث عند سيجموند فرويد الذي افترض أن النفس مكونة من ثلاثة أقسام : الهو : مستودع الغرائز والطاقة النفسية فعندما تثار الغرائز يشعر الإنسان بالتوتر فيعمل على تفريغها ليعود التوازن ، وهذا الجهاز يحكمه مبدأ اللذة .

الأنا : وتمثل الجانب الشعوري وتسيطر على سلوك الإنسان وتقرر ما يشبع من رغباته وما يؤجل منها بحسب ظروف الواقع ويحكم هذا الجزء مبدأ الواقع

الأنا الأعلى : وهو ممثل داخلي لقيم وقواعد السلوك والأخلاق ويحكم هذا الجزء مبدأ المثالية ، والصحة النفسية تعني قوة الأنا ونجاحها في تحقيق التوازن بين مطالب الهو والأنا الأعلى والواقع . يقول مرسي (١٤٠٩هـ) : ((من الملاحظ أن هذه النظرة للإنسان متشائمة حيث اعتبر فرويد الإنسان شريراً بطبعه ، تسيطر عليه رغبات حيوانية لا يقبلها المجتمع ، واعتبر قيم وأخلاق المجتمع لا تناسب طبيعة الإنسان مما يعني أن الصراع بين الأنا الأعلى والهو وبين الفرد ومجتمعه صراع حتمي ومستمر)) (ص : ١٠) . وهذه النظرة أغفلت الروح وآثارها أيضاً .

إن ابن القيم في نظرته الشاملة لجسم الإنسان وروحه أعطى مفهوماً للتوازن يقوم على الاعتدال وإعطاء كل ذي حق حقه وهو معلم ظاهر يبدو على سيما أصحاب الحياة الطيبة ، يقول نجاتي (١٤٠٩هـ) ((إن تحقيق التوازن

بين البدن والروح في طبيعة الإنسان شرط ضروري لتحقيق الشخصية السوية التي تتمتع بالصحة النفسية)) (ص : ٢٧٧) .

٣- البركة :

وهو ما يمكن أن يطلق عليه الباحث جني الثمرة بأسرع وقت وبأقل جهد ويصلح به الإنسان نفسه ومجتمعه ويسعده دنيا وأخرى ، أو استغلال الفرص واستثمار القدرات والإمكانيات فيما يرضي به ربه ، ويربط ابن القيم ذلك بالطاعة مشيراً إلى أن معصية الله تزيل تلك المميزات وتمحقها فيقول : ((إن المعاصي تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة الطاعة وبالجملة إنها تمحق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه ، ولا حيا ة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده والإنابة إليه والطمأنينة بذكره والأنس بقربه ، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله)) وقال : ((وكل ما نسب إلى الله مبارك فكلامه مبارك ورسوله مبارك وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك ، وكل ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه وكل ما كان منه قريباً ففيه البركة على قدر قربه منه)) (الجواب ، ص : ١٣٦) .

فابن القيم يربط بركة وثمرة الإنسان الطيبة لنفسه وللآخرين بقدر قربه من الله وتقل بركته وأثره الطيب بقدر بعده عن الله وطاعته . وهذه السمة لا تكاد توجد في الدراسات النفسية الحديثة .

٤- الذكر:

إن المقصود بالذكر هو ذكر الله تعالى وأشار ابن القيم إلى أهميته وأثره على البدن والقلب بل على الحياة كلها يقول ابن القيم : ((وفي الذكر أكثر من مائة فائدة منها : أنه يزيل الهم والغم عن القلب ، وأنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط ، وأنه يورث المحبة التي هي روح الإسلام ، وقطب رحى الدين ، ومدار السعادة والنجاة)) (الوابل ، ص : ٨٢) .

يقول مرسي (١٤٠٣هـ) مؤيداً ما ذهب إليه ابن القيم في أهمية الذكر وأثره وأنه حقيقة ((ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فيشعر بها بالطمأنينة والسلام ويحس أنه في هذا الوجود ليس منفرداً بلا أنيس)) (ص : ٢٨) .

إن الدراسات النفسية الحديثة خاصة التي أجراها علماء النفس المسلمون أكدت هذه الحقيقة وبينت أثر الذكر على الإنسان وحياته يقول نجاتي (١٤٠٩ هـ) : ((إن ذكر الله تعالى يبعث في النفس الحياة ، ويقوي فيها الأمل في مغفرة الله ورضوانه ، ويبعث فيها الشعور بالانشراح والسعادة ، فعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ **مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت** ﴾ رواه البخاري ، ومسلم (ص : ٣٢٥) .

وابن القيم كما يرى أن الذكر يجلب للإنسان السعادة والطمأنينة ، فهو أيضاً يزيل المخاوف والتوتر والأمراض حيث يقول : ((إن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها وله تأثير عجيب في حصول الأمن ، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل ، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان ، والغافل خائف

مع أمنه حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف ، ومن له أدنى حس قد جرب هذا وا لله المستعان)) (الوابل ، ص : ١٤٤) .

إذاً من أعظم صفات الصحيح نفسياً ذكره لله تعالى ، وقد أكد ذلك أيضاً مرسي (١٤١٠هـ) مبيناً أن ذكر ا لله تعالى من أعظم صفات وأسباب تحقيق الصحة النفسية لأنه يقوي صلة الإنسان بربه ، وهي عملية إرادية نفسية ، يتم فيها تحويل أفكار ومشاعر الغفلة والجحود بفضل ا لله إلى أفكار ومشاعر حفظ ا لله وشكره كل ذلك بسبب الذكر ، مؤيداً ذلك ببعض الدراسات التي أجريت لتأكيد ذلك عملياً حيث يقول :

((إن لذكر ا لله تأثيراً في تنمية الصحة النفسية وفي علاج انحرافاتها ، وفي وقاية الفرد والمجتمع من كل ما يؤذيه ، فقد لاحظ محمد شريف – طبيب نفس باكستاني – انخفاض حالات الاكتئاب في شهر رمضان ، وعندما عالج ٦٤ مريضاً بالاكتئاب ، وقسمهم إلى مجموعتين ٣٢ مريضاً أعطاهم العلاج الطبي فقط ، و٣٢ مريضاً أعطاهم العلاج الطبي ، وطلب منهم القيام بالليل من الساعة ٢ إلى ٤ صباحاً لصلاة التهجد ، وذكر ا لله ، وقراءة القرآن ، والدعاء والاستغفار ، وبعد أربعة أسابيع وجد أن ٧٨ ٪ من المجموعة الثانية ، و١٥ ٪ من المجموعة الأولى قد تخلصوا من الاكتئاب)) (ص : ٢٦) ، وكذلك هناك دراسة تجريبية أجرتها الباحثة " البنا " حول دور الأدعية والأذكار في علاج القلق كأحد طرق العلاج النفسي الديني ، وقد استخدمت الباحثة مقياس القلق الصريح " لتيلور " قبل تطبيق الأسلوب العلاجي وبعد تطبيقه .. وكان الأسلوب العلاجي قائماً على محاضرات وجلسات تبين أهمية الذكر والدعاء ، وكل ذلك يجري في المسجد بمعدل ساعة أسبوعياً وبعد أربعة أشهر أي بعد ستة عشر جلسة خرجت الباحثة بالنتيجة التالية : التأثير العلاجي الإيجابي للأسلوب العلاجي المستخدم حيث يتحقق مستوى القلق

لدى عينة الدراسة بزيادة عدد الجلسات العلاجية مما يدل على فاعلية هذه الطريقة لتحقيق القلق بعد تطبيقها إجرائياً .

من خلال هذه الشواهد يتضح للباحث اتفاق علماء النفس خاصة المسلمين مع ابن القيم في تأكيده على صفة ذكر الله تعالى وأهميته لتحقيق الصحة النفسية ومع ذلك لا يزال هذا المؤشر يحتاج إلى زيادة تأكيد ، ودراسة واستخلاص نتائج عملية وإظهار ذلك لعلماء النفس في جميع بقاع الأرض ولإفادة الناس أيضاً ، مع أنه كفى بقول الله تعالى ، وقول رسوله ﷺ حجة وبرهاناً .. ولكن تطبيق ذلك وملاحظة الملتزمين به ، وذكر آثاره وفوائده يعطيه شاهداً آخر من شواهد الصدق ، وهو من الصدق الواقعي التطبيقي .

٥- الصدق

أكد ابن القيم على عظم هذه الصفة وتعدد نفعها على الإنسان وأنها مسلك مهم لمريد السعادة وأن الصدق صدق في التوجه والإرادة وصدق في الفعل والتحرك ، يشير إلى ذلك بقوله : ((ليس للعبد شيء أنفع من صِدْقِه ربَّه في جميع أموره مع صدق العزيمة فيصدقه في عزمه وفي فعله فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل ، فصدق العزيمة جمعها وجزمها ، وعدم التردد فيها ، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة ، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور)) (الفوائد ، ص : ٢٦٦) .

ويرى ابن القيم أن الصدق يكون في جميع سلوكيات المرء القولية والفعلية بل وفي جميع أحوال المرء حيث يقول : قال تعالى :

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ (الزمر : ٣٣)

فالذي جاء بالصدق هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله فالصدق في هذه الثلاثة)) (مدارج ، ج ٢ : ٢٥٨) .

وإن الدراسات النفسية الحديثة أيدت ما ذهب إليه ابن القيم في شأن الصدق وأثره يقول مرسي (١٤١٠هـ) : ((لم يعد تحري الصدق في القول والعمل دعوة دينية أخلاقية ، بل أضحت مطلباً نفسياً وجسمياً واجتماعياً ، بعدما تبين من دراسات كثيرة أن تحري الصدق ينشط أجهزة المناعة الجسمية والنفسية ، والكذب يثبطها ويضعفها ، ودعا المعالجون النفسيون والأطباء والمرشدون التربويون إلى الصدق في القول والعمل ، واعتبروه علامة جيدة في الصحة النفسية بينما اعتبروا الكذب من عوامل وَهْن الصحة النفسية والجسمية وقد توصلت المدرسة السلوكية المعرفية إلى أن الصدق والأمانة والإخلاص تخفف القلق والتوترات ، وتزيل الاكتئاب ، وبينت دراسات أخرى : أن عدم الصدق في التعبير عن الانفعالات من العوامل المرتبطة بظهور السل والسرطان وانتهى " بيرسال " من دراساته في علم المناعة النفسية إلى أن الصدق صحة والكذب مرض ، وقال : ((تحروا الصدق وإن رأيتم الهلكة فيه فعاقبته خير في كل الأحوال)) (ص ٢٢) .

وهنا نجد علماء النفس في المدرسة السلوكية المعرفية وغيرها يؤكدون على الصدق نظراً لطيب أثره ، وسوء أثر الكذب ، لا لأجل أنه مطلب شرعي ، فهنا يختلفون مع ابن القيم الذي يؤكد على الصدق من أجل أمر الله به .. ثم لما يترتب عليه من آثار حميدة .

٦- الطمأنينة وفرح القلب :

أوضح ابن القيم أن الطمأنينة حقيقة ثابتة وأنها كالنسمة تدخل جسم الإنسان وقلبه وتسري فيه فيسكن الإنسان ويطمئن باله ، ويزول قلقه ، وأن

مصدرها من الله تعالى حيث يقول : ((فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه ، وترد قلبه الشارد إليه فتسري تلك الطمأنينة في نفسه ، ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره ، وهو كلامه الذي أنزله على رسوله ﷺ)) ثم فصل ابن القيم في مجالات الطمأنينة فهناك طمأنينة إلى التوحيد ، وطمأنينة إلى الآخرة ، وطمأنينة إلى التوبة والطاعة حيث يقول : ((وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسله فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان ، وانشراح الصدر له وفرح القلب له فهذا أول درجات الطمأنينة ، وهو أصل أصول الإيمان التي عليه بناؤه ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً ، وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالاً وإخلاصاً ونصحاً فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ، ولا تقليداً ، وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة)) (الروح ، ص : ٣٣١) .

إن كلام ابن القيم على هذه السمة قريب من كلامه حول مفهوم الحياة الطيبة حيث جعلها السعادة القلبية التي حقيقتها الطمأنينة ، وإن الدراسات النفسية اتفقت مع ابن القيم بجعل السعادة والشعور بالأمن وذهاب التوتر معلماً ومؤشراً على الصحة النفسية أورد نجاتي (١٤٠٩ هـ) ما ذكره فرج أن أول مؤشر يستدل به على الصحة النفسية هو أن يشعر الفرد بالأمن

النفسي بل ذكر علماء النفس أن الطمأنينة والسعادة هي الصحة النفسية (ص ، ٢٧٢)

وأكد ذلك مرسي (١٤٠٩ هـ) بقوله : ((يرى بعض علماء النفس أن الصحة النفسية شعور بالسعادة ، فالشخص المتمتع بصحة نفسية سعيد في حياته ، والشخص الواهن نفسياً شقي في حياته)) (ص : ١٢) ، إلا أنها لم توضح مصدر السعادة وواهب الطمأنينة ، ولم يربطوا مؤشراتها ومرتكزاتها بعبودية الله تعالى ، واتباع أمره ، لكن ابن القيم أبان أن مصدر السعادة والطمأنينة من الله وأن من أعظم مؤشراتها عبودية الله وأن قمة المرتكزات لتحقيقها هو الإيمان بالله وطاعته .

٧- الرضا :

إن الرضا عند ابن القيم يعني القبول القلبي والحالي ، وعدم التسخط ، ويربط ذلك بالرضا بالله عز وجل وأقداره ، وأنه صفة لمريد السكينة ، ومعلم ظاهر على أهل السعادة يقول : ((والرضا يشمل الرضا بربوبيته ، وألوهيته والرضا برسوله والانقياد له ، والرضا بدينه ، والتسليم له ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصدِّيق حقاً ، وطريق الرضا طريق مختصرة قريبة جداً موصلة إلى أجل غاية ولكن فيها مشقة وعقبتها همة عالية ، ونفس زكيه ، وتوطين النفس على كل ما يرد عليها من الله ، وثمرة الرضا الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى)) (مدارج ، ج ٢ : ٣١) وقال : ((والرضا بالمقدر من سعادة ابن آدم وسخطه من شقاوته))(المرجع السابق ، ج ٢ : ٢٠٢) ومن خلال النصوص السابقة يتضح معنى الرضا عند ابن القيم وثمرته ، وأنه مؤشر على سعادة المرء وأن طريقه شاق لكنه مفض إلى رياض مؤنقة ونتائج حسنة ، وأن علماء النفس المحدثين المسلمين وغيرهم بينوا أهمية الرضا في دخوله للصحة النفسية

سبباً ومعلماً ، يقول مرسي (١٤١٠ هـ) : ((وعلى الإنسان أن يرضي نفسه في كل الأحوال حتى يحميها من مشاعر السخط والضجر والسأم ، والملل والعجز والانهزامية ، فالرضا عملية نفسية إرادية ، مصدر سعادة وعلامة صحة)) ، ثم ذكر دراسة مبرهنة ومؤيدة لقوله بأنه وجد أن الشباب الراضين عن الحياة المتقبلين لها ، أكثر نضارة وحيوية وأقل عرضة للأمراض الجسمية (ص ١٢) .

والرضا من وجهة نظر ابن القيم ليس هو القعود وعدم التحرك بل ألمح لذلك من خلال لزوم الهمة العالية لمريد الرضا ، والنفس الزكية ، كصنو للهمة وهذا يبين أن الرضا عنده لا ينافي الجد والعمل ، وسيأتي مزيد إيضاح لوجهة نظره في مرتكزات الصحة النفسية وهذا أشار إليه مرسي (١٤١٠هـ) بقوله : ((ولا يتناقض الرضا مع الطموح والرغبة في التقدم ، والتطلع إلى الأحسن لأن الشخص الراضي عن الله ، وعن النفس والناس والحياة شخص نشيط مثابر ، فالرضا ليس وقوفاً عند القليل ، وزهداً في الكثير مع القدرة عليه فكل شخص مطالب بتنمية نفسه ، وتحسين حياته بالتنافس في عمل ما ينفعه في الدنيا والآخرة)) (ص : ١٣)

بيد أن من الأمور التي يتميز بها ابن القيم عن غيره ، أن الرضا عنده ليس رد فعل لحدث أو موقف ، أي يتكون بعد الفعل وهو الرضا عن الحياة ، ولكن الرضا عنده يكون قبل الفعل وبعده ، رضاً قبل الفعل بالتوجه والطلب وذلك يجمعه الإيمان با لله والرضا بدينه ، والرضا عنده بعد الفعل إذا عمل وفشل أو أخطأ ، أو أصابته مصيبة ، حينئذ يكون رد الفعل بالتسليم وعدم التسخط ، مع محاولة التأهب للعمل مرة أخرى بنشاط أكثر لأن من جرب أعلم وأحكم ممن هو على العمل جديد ، وهذا الثاني – الرضا عن الحياة

والأقدار المؤلمة – هو البارز في كلام علماء النفس حول مؤشر وصفه الرضا كمعلم مهم على الصحة النفسية .

٨- الأدب :

وهذه السمة قريبة من حسن الخلق ، إلا أن حسن الخلق ألصق بكونه من المرتكزات بينما الأدب ألصق بكونه سمة ومؤشراً ، ويتميز الأدب بأنه أكثر عمومية وشمولاً ويعرفه ابن القيم بأنه : ((اجتماع خصال الخير في العبد)) وحقيقة الأدب استعمال الخلق الجميل ولهذا كان الأدب : (استخراج ما في الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل) ويؤكد على أهميته فيقول : ((وأدب المرء : عنوان سعادته وفلاحه ، وقلة أدبه : عنوان شقاوته وبواره ، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب وقال الأدب هو الدين كله)) (مدارج ، ج ٢ : ٢٥٦) .

ويحدد ابن القيم ثلاث مجالات للأدب :

أدب مع الله عز وجل

وأدب مع الرسول ﷺ

وأدب مع الخلق

مبيناً ما يتضمنه كل أدب فيقول : ((والأدب ثلاثة أنواع : أدب مع الله سبحانه ، وأدب مع رسوله ﷺ وشرعه ، وأدب مع خلقه ، فالأدب مع الله تبارك وتعالى : هو القيام بدينه ، والتأدب بآدابه ظاهراً وباطناً ، وأما الأدب مع الرسول ﷺ : فكمال التسليم له والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول ، وأما الأدب مع الخلق : فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم ، فلكل مرتبة أدب)) (المرجع السابق ، ج ٢ : ٢٦٥) .

وقد تميز ابن القيم بذكره هذه الصفة والسمة عن غيره من العلماء سواء المسلمين أو غيرهم في الدراسات النفسية الحديثة حيث لم يشيروا لهذه السمة إلا ما يندرج تحت مسمى حسن الخلق أو التوافق والاحترام والتعاون ، وعلى كلٍ فهي سمة جامعة لخصال الخير ، توجه علاقة المرء وتؤدب اعتقاده وسلوكه في حياته .

٩- التعاون والتكميل :

أكد ابن القيم على أن الحياة الطيبة لا تحصل لمن قَصَرَ الخير والنفع على نفسه وأهمل الآخرين فإن ذلك أنانية مقيتة ، وأن التعاون بين المؤمنين أمر مطلوب لتكميل النفس والآخرين فبذلك يحصل الكمال النفسي والاجتماعي الذي ينشده كل مجتمع حيث قال شارحاً الكمال : ((فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره ، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية ، فصلاح القوة العلمية بالإيمان ، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه ، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل)) (مفتاح ، ج ١: ٥٦)

وذكر ابن القيم بعض أوجه التعاون التي عن طريقها يصل الإنسان لإفادة الآخرين فقال : ((المواساة للمؤمنين أنواع : مواساة بالمال ، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة ، ومواساة بالنصيحة والإرشاد ، ومواساة بالدعاء والاستغفار ، ومواساة بالتوجع لهم ، وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة ، فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة ، وكلما قوي ، قويت))
(الفوائد ، ص : ٢٤٦)

من خلال ذلك يتضح أن مريد الصحة النفسية عند ابن القيم هو الساعي لتكميل نفسه وتكميل غيره فهو دائم يقظ متحرك ، فعال يفيد ويستفيد ،

وليس بجامد أو سلبي لا يفيد ولا يستفيد فإن ذلك مرض ، وقتل للطاقات ، وظلم للنفس والآخرين ، إن الدراسات النفسية أشارت إلى التكامل النفسي ، والتعاون كمؤشرات للصحة النفسية ، إلا أنها أغفلت الجانب الإيماني كدافع للكمال ، وتكميل الآخرين ، وهذا ما أبرزه ابن القيم تحت مسمى القوة العلمية ، ثم جعل القوة الأخرى وهي العملية ، تقوم على هذه القوة وأن نفع الإنسان لنفسه والآخرين يرتبط بالإيمان قوة وضعفاً .

١٠-التفاؤل :

إن التفاؤل هو الاستبشار المفرح للقلب المقوي للعزيمة السار للنفس ، وإن ضده التشاؤم والنظرة اليائسة إلى كل شيء من بشر أو حجر أو طير أو شيء وابن القيم يؤكد هذه القضايا ناهياً عن التشاؤم لأنه شرك ، مثنياً على التفاؤل فيقول بعد ذمه للتشاؤم : ((فأين هذا التشاؤم من الفأل الصالح السار للقلوب المؤيد للآمال ، الفاتح باب الرجاء ، المسكن للخوف ، الرابط للجأش ، الباعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه ، والاستبشار المقوي لأمله السار لنفسه فهذا ضد الطيرة " التشاؤم " فالفأل يفضي بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد والطيرة " التشاؤم " تفضي بصاحبها إلى المعصية والشرك))
(مفتاح ، ج٢ : ٢٤٧)
وذكر بعض المختصين النفسيين : أن أعلى مراتب التفاؤل توقع الشفاء عند المرض ، والنجاح عند الفشل ، والنصر عند الهزيمة ، وتوقع تفريج الكروب ، ودفع المصائب ، وزوال النوازل عند وقوعها فالتفاؤل في هذه المواقف عملية نفسية إرادية تولد أفكار ومشاعر الرضا والتحمل ، والأمل والثقة ، وتطرد أفكار ومشاعر اليأس والانهزامية والعجز ، وابن القيم يوضح بعض هذا الكلام أثناء حديثه حول حديث الرسول ﷺ : ﴿ **إذا دخلتم على المريض**

فنفسوا له في الأجل ، فإن ذلك لا يرد شيئاً ، وهو يطيب نفس المريض ﴾
رواه الترمذي ، قال الألباني (١٤١٠هـ) ((رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وهو ضعيف جداً))
(ص : ٧٠) يقول : ((في هذا الحديث نوع شريف جداً من أنواع العلاج ، وهو الإرشاد إلى ما يطيِّب نفس العليل من الكلام الذي تقوى به الطبيعة وتنتعش به القوة ، وينبعث به الحار الغريزي ، فيتساعد على دفع العلة أو تخفيفها الذي هو غاية تأثير الطبيب)) (الطب : ٢٥٥) أما التشاؤم المقوي لليأس المنتهي للعجز والانطواء والسلبية فهذا ليس مؤشراً على الصحة ، بل على المرض ، والاستعداد له ، وإلى ذلك يشير القذافي (د – ت) ((ويعزي كثير من العلماء بعض مظاهر السلوك غير السوي إلى اليأس ، مثل الإقدام على الانتحار ، والشعور بالاستسلام وفقدان الأمل ، والتسليم بالفشل مع العجز عن عمل أي شيء لتغيير الظروف المحيطة وشعور الإنسان باستحالة مرور الأزمة أو حدوث الانفراج)) (ص : ٨٧) .

وقد أكدت الدراسات النفسية الحديثة على هذه السمة ((ويتفق علماء الصحة النفسية على ضرورة أن يعيش الإنسان يومه متفائلاً حتى في الظروف الصعبة ، ولا يقلق على المستقبل ، ويستخدم بعض المرشدين النفسيين في أمريكا قانون الاحتمالات في علاج مشكلة المصائب ، ويدعون الإنسان إلى أن يجهز نفسه لأسوأ الاحتمالات ثم يحاول تحسين هذا الأسوأ بهدوء وتعقل ولكل مصيبة احتمال في حدوثها ، فلا يقلق إذا كانت احتمالاتها قليلة ، قال كارنيجي : كنت أخاف من أن أموت بصعق البرق فعلمت أن احتمالات موتي بسببه ١ : ٣٥٠٠٠٠ ، وكنت أخاف أن أدفن حياً ، فوجدت أن احتمالات حدوث ذلك ١ : ١٠ ملايين ، وهكذا فإن تطبيق قانون الاحتمالات يجعلنا نتفاءل ولا نقلق ، ويعطي الإسلام للتفاؤل معنى نفسياً وروحياً ، أفضل من المعنى الذي أعطاه قانون الاحتمالات ، فتوقع أسوأ

الاحتمالات يناقض التفاؤل ، وتوقع المصائب التي تزداد احتمالات حدوثها تشاؤم ، أما الإسلام فقد جعل التفاؤل مرتبطاً بالثقة في الله والرضا بقضائه فلن يصيب الإنسان إلا ما كتبه الله له ، فلا يستبطئ الرزق ، ولا يستعجل النجاح ولا يقلق على المستقبل)) (مرسي ، ١٤١٠هـ ، ص : ١٤) فالمسلم المتفائل يعلم أن الذي يملك كل شيء هو الله ، وليس طيراً أو بشراً أو حجراً فيتعلق قلبه بالله ويمضي قدماً لتحقيق أهدافه .

١١- الرغبة في الآخرة :

وهي الحياة التي تلي هذه الدار ، ومن أعظم أمارات ، وعلامات صاحب الحياة الطيبة ، الرغبة في الآخرة إيماناً بها ، واستعداداً لها ، يقول ابن القيم : ((فأعقل الناس من آثر لذته وراحته الآجلة الدائمة ، على العاجلة المنقضية الزائلة وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد ، وطيب الحياة الدائمة ، واللذة العظمى التي لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء)) (الجواب ، ص : ٢٧٨) .

والعلم بهذه الحياة الدائمة إنما وصل إلينا عن طريق الوحي الذي هو أهم مصادر المعرفة عند ابن القيم وإلى ذلك أشار : ((وحصول العلم بهذه الحياة إنما وصل إلينا بخبر إلهي على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم ﷺ فقامت شواهدها في قلوب أهل الإيمان حتى صارت لهم بمنزلة العيان))
(مدارج ، ج٣ : ٢٥٧)

ويرى ابن القيم أن الإيمان والرغبة في الآخرة وقِصَرَ الأمل في الدنيا تحث الإنسان على النشاط والجد ، واغتنام الفرص إذ يقول : ((فأما قصر الأمل فهو العلم بقرب الرحيل ، وسرعة انقضاء مدة الحياة ، وهو من أنفع الأمور للقلب فإنه يبعثه على مُعافَصَةِ الأيام وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب ،

ومبادرة طيِّ صحائف الأعمال ، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء على قضاء جهاز سفره ، وتدارك الفارط ، ويزهده في الدنيا ، ويرغبه في الآخرة))

(مدارج ، ج ١ : ٤٤٨)

و لم تظهر هذه السمة في كتابات الدراسات النفسية الحديثة إما لعدم الإيمان بها من بعضهم أو لعدم التركيز عليها من البعض الآخر اللهم إلا ما أشار إليه قلة منهم مثل نجاتي : ((بأن من مؤشرات الصحة النفسية من حيث علاقة الفرد بربه الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له وبكتبه ورسله وملائكته وبالآخرة والحساب)) (ص : ٣٠٢) .

من خلال تلك المؤشرات والسمات السابقة يتضح للباحث تصور ابن القيم نحو المؤشرات الذي تبلور في ثلاثة جوانب : مع الله تعالى وذلك ظاهر في العبودية والصدق والأدب والذكر ، ومع النفس وذلك ظاهر في العبودية والتكميل والأدب والتوسط ، ومع الآخرين والمجتمع وذلك ظاهر في العبودية والصدق والتكميل والأدب . كل ذلك يشع ويثمر للإنسان الطمأنينة وفرح القلب والرضا . إن ابن القيم يؤكد على أهمية الجانب الروحي وقوة تفاعله مع الجانب الجسمي القائم على التوسط والاعتدال في إشباع حاجات البدن التي لابد منها وإشباع حاجات الروح وتطلعاته التي لا حياة للإنسان بدونها ويبرز في نظرة ابن القيم الاهتمام بالآخرة مع عدم إهمال الدنيا وهذا ما يبرز نظرة ابن القيم النظرة الشمولية في تكوين الإنسان وغذائه واهتمامه التي تتميز بالقدر المعين والوزن المعلوم . وهنا يخرج الباحث بالنتيجة التي خلص إليها كل من محمد ومرسي (١٤٠٦هـ) ، ونجاتي (١٤٠٩هـ) ، وصبحي (١٤١٣هـ) ، والنغيمشي (١٤١٥هـ) وغيرهم من علماء النفس المسلمين إلى أهمية الجانب الروحي وأثره الفعال في تكوين الصحة النفسية وعلاقته الوثيقة بمؤشرات الصحة النفسية وهم بذلك يتفقون مع رأي ابن القيم بتأكيده

الدائم على صلة الروح بالجسد وأثرها على صحته ومرضه وسواءه واضطرابه يقول قطب (١٤٠٣هـ) " هكذا يعالج الإسلام النفس البشرية والحياة البشرية .. جسم وعقل وروح ممتزجة مترابطة في كيان واحد . طاقة جسمية وطاقة عقلية وطاقة روحية عاملة في الأرض ، ممتزجة مترابطة ، لا ينفصل عمل هذه عن تلك وهو يصل من هذا المزج إلى نتائج معينة هي التي تحدد سمات الإنسان الصالح وتبرزه حقيقة ملموسة في واقع الحياة " (ج ١ : ٢٦) هذا الجانب الذي طالما أغفل وأهمل مما أحدث عدم توازن في النظرة والحكم وإعطاء الأولويات في حياة الإنسان وإلى هذا يشير نجاتي (١٤٠٩هـ) حيث يقول : ((مما هو جدير بالملاحظة أن مؤشرات الصحة النفسية التي وضعها علماء النفس المحدثون من الغربيين والعرب تدور كلها حول تكيُّف الفرد أو توافقه مع نفسه ومع المجتمع ومدى قدرته وفاعليته في القيام بشؤون حياته الواقعية ، وإشباع حاجاته المادية الدنيوية ، إنهم بذلك لم يوجهوا أي اهتمام نحو الجانب الروحي في الإنسان وإلى أهمية دور الدين والإيمان في الصحة النفسية وإن كان عددٌ قليلٌ منهم بدءوا يدركون أهمية الدين والإيمان با لله في الصحة النفسية)) (ص ٢٧٥) .

مرتكزات تحقيق الصحة النفسية

تكلم ابن القيم عن مرتكزات لتحقيق الحياة الطيبة بشكل كبير ولعل الباحث يقتصر على المهم منها :

١- العلم والإرادة :-

إذ العلم والإرادة صنوان لمريد الصحة النفسية وطالبها فذكر أهميتها وحقيقتها بقوله : ((ولما كان في القلب قوتان قوة العلم والتمييز ، وقوة الإرادة والحب كان كماله وصلاحه باستكمال هاتين القوتين فيما ينفعه ويعود عليه بصلاحه وسعادته ، فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته ، والتمييز بينه وبين الباطل ، وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل)) (إغاثة ، ج١ : ٣٧)

فهو يرى أن الكمال الإنساني لا يُنال إلا بالعلم والإرادة كما أن النقص والمرض ينال الإنسانَ بتقصيره في أحدهما وهنا يقول : ((فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من إحداهما إما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها أو يكون عالماً بها ولا تنهض همته إليها))
(مفتاح ، ج١ : ٤٦)

ويجعل ابن القيم في قمة العلم المراد العلمُ با لله عز وجل وشرعه إذ يقول : ((إن العلم با لله أصل كل علم وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته ، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح به)) (المرجع السابق ، ج١ : ٨٦) إن العلم عند ابن القيم هو المعرفة والفهم الصحيح النافع ، والإرادة هي عزم القلب على العمل وتحريك الجوارح نحوه بقوة ودون تردد فهو يمثل السلوك . فابن القيم أثبت للإنسان إرادة ولكنها إرادة مسؤولة وليست مفتوحة فهي مندرجة تحت إرادة ا لله تعالى ، وكذلك هي مناط الجزاء من ثواب وعقاب ، وسيزيد الباحث إيضاحاً لهذه

النقطة في ركيزة المحاسبة .

وقد أشارت الدراسات النفسية إلى أهمية المعرفة وتطبيقها – ولكنها المعرفة المجردة – في تحقيق الصحة النفسية بل إنهما يدخلان في جميع المجالات سواء الصحة النفسية أو التوجيه والإرشاد أو التربية والتعليم أو الطب والعلاج فكل هذه التخصصات تنادي بأهمية العلم ومعرفة الإنسان لنفسه وإمكانياته ومعرفة طرق التعلم والوقاية وتؤكد على أهمية إنزال المعرفة من المجال النظري إلى السلوك وذلك يظهر في الاستبصار وفهم الذات والتعلم ، والآخر يتضح في النمو وتغير وتعديل السلوك .

ومما هو جدير بالذكر أن ابن القيم يربط العلم بالحق ويجعل قمة ذلك العلم با لله وكل علم يأتي بعد ذلك ومصدره في ذلك الوحي " النقل " المتفق مع العقل غير المخالف للحس ، أما في الدراسات النفسية فلا يُكاد يُرى إشارة إلى هذا النوع من العلم وذلك لنقص مصادر المعرفة عندهم مما تَتَطلبَ عدم معرفتهم بذلك وتركيزهم الواضح على الإنسان ومعارفه وعلومه القريبة .

أما الإرادة فابن القيم أكد على ضرورة وجود الإرادة الجازمة لدى الإنسان حتى يحقق الكمال الإنساني والصحة النفسية ولكنها إرادة محكومة ومسؤولة غير مفتوحة بدون ضوابط . أما في الدراسات النفسية فبعضهم يؤمن بالحتمية الداخلية وأن أجهزة الإنسان الداخلية تتحكم في الإنسان ، وبعضهم يرى أن الإنسان محكوم بالحتمية الخارجية ولا يملك لنفسه حولاً ولا قوة وإنما يصاغ من خلال العوامل الخارجية ... وبعضهم الآخر – كرد فعل شديد على تلك النظريتين – فإنها ترى أن للإنسان إرادة وجعلوا من أعظم تصوراتهم أن الإنسان حرٌ في حدود معينة يقول محمد ، ومرسي : (١٤٠٦هـ) في ذلك : ((ولا شك أن عودة مبدأ الإرادة في السلوكيات الإنسانية يهز بعنف مبدأ الحتمية النفسية أو الحتمية السلوكية التي سادت التيارات النفسية بشكل

عام)) (ص : ٥٢) ، وهذه النظرة تتفق إلى حد كبير مع نظرة ابن القيم إلا أنهم لم يحددوا حدود الإرادة تحديداً واضحاً ، فهو يعمل ما يشاء ويقرر ما يشاء بشرط عدم إلحاق الضرر بالآخرين أما ابن القيم فيرى حدود الإرادة والحرية بعدم مخالفة أوامر الحق في نفس الإنسان وحياته وحياة الآخرين .

٢- الإيمان بالله تعالى ومتابعة الرسول ﷺ :-

أكد ابن القيم على أهمية هذه الركيزة في تحقيق الحياة الطيبة بل هو سبب الصحة النفسية الأعظم وطريقها الأكبر وبه تتحقق الحياة والسعادة القلبية فيقول مقسماً الحياة إلى حياتين : ((الإنسان مضطرٌ إلى نوعين من الحياة : حياة بدنه التي يدرك بها النافع والضار ويؤثر ما ينفعه على ما يضره ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك ، وحياة قلبه وروحه التي يميز بها بين الحق والباطل والغي والرشاد فيختار الحق على ضده فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال)) (مفتاح ، ج١ : ١٠٨) ويقول في موضع آخر : ((الله أقسم على أن كل أحد في خسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله وقوته العملية بطاعة الله)) (إغاثة ، ج١ : ٣٩) وذكر أن الإيمان هو القوة الآمرة الناهية إذا قوي ، يقول : ((فإن الإيمان هو روح الأعمال وهو الباعث عليها والآمر بحسنها والناهي عن قبحها وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه وائتمار صاحبه وانتهاؤه)) (مدارج ، ج٣ : ٢٦٦) . ويعني بالإيمان بالله عقيدةً في القلب ، وسلوكاً في الظاهر ، فيقول : ((والإيمان حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً ، والتصديق به عقداً ، والإقرار به نطقاً والانقياد له محبة وخضوعاً والعمل به باطناً وظاهراً وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان ، وكماله في الحب في الله والبغض في الله والعطاء في الله والمنع لله

وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده ، والطريق إليه تجريد متابعته رسوله ظـاهراً وباطناً)) (الفوائد ، ص : ١٥٩) .

إن ابن القيم يعتقد أنه لابد لمريد الحياة الطيبة من الإيمان بالله وجعله عقيدة في القلب وسلوكاً في الظاهر والطريق للوصـول إلى ذلـك عـن طريـق رسـوله محمد ﷺ إن الإيمان في نظره هو الدافع للعمل الحسن وهو المد له فكلما قوي الإيمان انطلق الإنسان سعياً إلى الكمال وكلما ضعف أو انعدم تثاقل سيره وقد يسقط . وابن القيم بهذا جعل للإنسان معنى لحياته وهو الإيمان بالله ، ودافعاً يدفعه ويقويه وهو العقيدة بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً .

وقد أجرى مرسي (١٤٠٩هـ) دراسة لبحث العلاقة السـببية بـين الإيمـان والصحة النفسية وأشار إلى أن زيادة الإيمان يؤدي إلى زيادة الصحة النفسـية ، ونقصانـه إلى وهـن في النفـس ، فالإيمـان سـبب للصحـة النفسـية ، والصحـة النفسية نتيجة للإيمان (ص : ١-٢)

هذا وقد تنادى علمـاء النفـس المحدثـون - خاصـة في الغـرب - إلى أهميـة الإيمان والدين وأثرهما في الصحة النفسية ، ومن ذلـك مـا أكـده " فرانكـل " زعيم مدرسة " العلاج بإحياء المعنـى " " اللوغوثـيرابي " إذ يعتـبر فقـد معنـى الحياة الذي أسماه فرانكل " عصاب اللامعنى " يعتـبره مرضـاً يصيـب الإنسـان وأن قوة الإنسان في مواجهة الحياة تقوى وتضعف اعتماداً على وجـود القـوى الروحية الداخلية ، يقول فرانكل : ((إن بحث الإنسان عن معنـى لحياتـه قـوةٌ أولية في حياة الإنسان وليست تبريراً أولياً لدوافعه الغريزية ، وهذا المعنى متفرد وخاص ويجب أن يصـل إليـه ويحققـه الشـخص نفسـه ، وبهـذا فقـط تتحقـق أهميته وترقى هذه الحاجة إلى المعنى لـدى الشـخص ، وهنـاك بعـض الكُتّـاب يؤكدون على أن المعاني والقيم ليست إلا عمليـات نفسـية دفاعيـة ، وتكويـن رد فعل وتسامي . ولكن عن نفسي فأنا لا أستطيع أن أعيـش فقـط في سـبيل

دفاعاتي النفسية وليس عندي استعداد أن أموت في سبيل تكويـن رد الفعـل ، ولكـن الإنسـان يسـتطيع أن يعيـش وأن يمـوت في سـبيل مثلـه وقيمـه))
(المهـدي ، ١٩٩٠م ، ص : ٨٤)

وهذا الكلام من الطبيـب النفسـي يعـد خطـوة في الطريـق للاعـتراف بأهمية العوامل الإيمانية وأثرها في تحقيق الحياة الطيبـة ، يقـول المهـدي (١٩٩٠م) : ((وربما لو أن " فيكتور فرانكل " كان قد درس الإسلام دراسة وافية لأمكنـه إكمال ما بدأه في هذا الاتجاه الصحيح ، ولكن أعتقد في ذات الوقت أن نشأة فرانكل وبيئته ومعتقداته الوجودية لم تكن لتسمح له بالتحليق أكثر مـن ذلـك - أعني حدود الإنسان في هذه الحيـاة فقـط - فكمـا نلحـظ فهـو يتكلـم عـن جوهر الإنسان وروح الإنسان ، ومعنـى وجـود الإنسـان في الحيـاة وعـن أنـه يستطيع أن يموت في سبيل قيمه ومثله و لم يذكر أية قيمة وأية مُثُل ، و لم يذكر شيئاً عما بعد هذه الحياة ، فقط أراد مـن الإنسـان أن يجـد معنـى لوجـوده في الحياة وأن يؤمن بحتمية المعاناة وحتمية الموت)) (ص : ٨٤) وابن القيـم يعتـبر أن الجانب الروحي الناتج عن العبودية لله هو المعنى الحقيقي الوحيد للإنسـان في حياته .

ويقول " بيرت " (١٩٨٥م) ناعياً علم النفس الحديث بأنـه بَعْدُ لم يحقـق الراحـة الـتي ينشـدها الإنسـان ومثنياً علـى الديـن : ((وإن الديـن في تعابـيره تتضمن أرقى أفكار الإنسان وأحاسيسه عما يحيط به من ألغاز الوجـود وتبـين أسمى موقف له نحـو معضـلات الفنـاء إذن فمهمـا يكـن رأي عـالم النفـس في التفصيل فإنه مضطر أن يعترف أن الدين من أكثر العوامـل الاجتماعيـة بقـاءً ، ومن أقوى الوسائل الفعالة للسمو بحياة الفرد والمجموعـة البشـرية)) (ص : ٢) ويرى " البورت " أنه من الجوانب السـوية الصحيحـة أن يعتنـق الفـرد فلسـفة لحياته تنطوي على العلاقات العميقـة المشبعة بالنسبة لذاتـه وللآخريـن ، وأن

ينظر إلى الكائنات البشرية بعمق واعتبار)) (مرسي : ١٤٠٣هـ ، ص : ٤٣) ويذكر (نجاتي ، ١٤٠٩هـ ، والمهدي ، ١٩٩٠م) أن وليم جيمس كذلك نادى بأهمية ودور الإيمان في الصحة النفسية فقد قال : ((إن أعظم علاج للقلق ، ولا شك هو الإيمان)) وأيضاً " كارل يونج " إذ قال : ((استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة وعالجت مئات كثيرة من المرضى فلم أجد مريضاً واحداً من مرضاي الذين كانوا في المنتصف الثاني من عمرهم من لم تكن مشكلته في أساسها هي افتقاره إلى وجهة نظر دينية في الحياة وأستطيع أن أقول إن كل واحد منهم قد وقع فريسة المرض لأنه فقد ذلك الشيء الذي تمنحه الأديان القائمة في كل عصر لأتباعها ، وأنه لم يتم شفاء أحد منهم حقيقةً إلا بعد أن استعاد نظرته الدينية في الحياة)) ويقول " بريل " : ((إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً)) (نجاتي ، ١٤١٤هـ ، ص : ٢٦٩) وقد أشار إلى ذلك " هنري لينك " أنه وجد نتيجة خبرته الطويلة في تطبيق الاختبارات النفسية على العمال في عملية الاختبار المهني والتوجيه المهني أن الأشخاص المتدينين والذين يترددون على دور العبادة يتمتعون بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين لهم أو لا يزاولون أية عبادة (القرضاوي ،١٣٩٩هـ ، : ٣٥٦) هذا ما أثبتته الدراسات النفسية التي تؤكد أثر الإيمان والعقيدة في حياة الإنسان وصحته ، هذا وإن الدين والعقيدة التي يشيرون لها وهي النصرانية أو غيرها باطلة ، ومشوبة بل مليئة بكثير من الانحرافات فكيف بالإسلام الدين الحق الذي يؤكد ابن القيم أهميته وأثره وارتباطه الوثيق مع جسم الإنسان لتحقيق صحة متكاملة ، نعم إن جميع الأديان حقها وباطلها تملك القدرة على التوجيه والقوة غير المرئية التي يركن إليه الإنسان كلما مسه الضنى ، وهذا السبب الذي جعل علماء النفس يؤكدون على أثر العقيدة في حياة الإنسان . هذا وقد

أشار (رجب ، ١٤١١هـ) إلى مناداة علماء السلوك والاجتماع لأهمية الدين والعقيدة وآثارهما القوية في جلب السعادة للإنسان والمجتمع وذكر بعض الشواهد على ذلك ناقلاً تأكيد " روجر رسبيري " الذي يفتح الباب للتقارب بين العلم والدين ، يقول رجب (١٤١١هـ) : ((إلا أنه عندما يكشف لنا عما يقصده بالدين يتبين لنا أنه يتحدث عن نوع من الدين الإنساني " العام " الذي يستطيع أن يتعامل هو طبعاً معه كإنسان غربي في ضوء رفضه لما يقدمه من معتقدات نصرانية ويهودية فلا يجد أمامه إلا البحث عن دين يقوم على قيم أخلاقية هدفها كما يرى " المحافظة على البقاء " للإنسان في هذه الحياة الدنيا)) (ص ٤٩) ، ويعلق " رجب " أيضاً حول تفسير عالمين نفسيين " آجروس ، ستانسيو " للقيم الروحية بأن التفسير يسير في نفس الخطوط للحضارة الغربية ، فيفسران النواحي الروحية بأنها تتصل بالقيم الأخلاقية والفكرية والجمالية ، ويوضحان أنها تتضمن المعرفة العقلية والحكمة والمهارة الفنية إضافة إلى جميع الخصال المحمودة كالكرم والشجاعة)) (ص ٥٠) ويرى الباحث أن هذا طبعي نظراً لتأثرهم ببيئتهم ، لكن تأكيدهم على العوامل الداخلية والقيم الروحية وأثر الدين القوي مما يعد خطوة على الطريق بالنسبة لهم ... ويؤكد ويصدق ما قاله ابن القيم حول أثر بل ارتباط الصحة النفسية والحياة الطيبة بالإيمان بالله ومتابعة المبلغ عن الله وهو الرسول ﷺ . والدين الذي يراه ابن القيم ليس هو اعتقادات في القلب فقط أو توجه نحو قوى خفية بل هو إيمان يشمل اعتقاد القلب الصادق بالله ويشمل قول اللسان وكذلك عمل الجوارح ، هذا بالنسبة للإنسان ذاته كذلك يدخل الإيمان وتشريعاته جميع جوانب الحياة من عمل وأسرة ومال وسياسة ؛ فالدين له في كل شيء صغر أم كبر كلمته التي ينبغي لمريد الصحة النفسية أن لا يتعداها ولا يقصر دونها وهذه هي العبودية الشاملة التي ذكرها ابن القيم في السمات : عبودية

القلب واللسان والجوارح ، وتشمل الأحكام التكليفية : الواجب والمحرم والمندوب والمكروه والمباح فليس هناك أي نشاط أو عمل أو شيء إلا وهو يدخل تحت أحد الأحكام الخمسة السالفة الذكر . ولذا يرى الباحث شمولية الدين عند ابن القيم وتفعيل الجوارح وتحريكها كلها وتنظيم حياة الإنسان من مولده إلى موته قبل وبعد الموت بأدلة نقلية قطعية سيزيدها الباحث إيضاحاً في مصادر ابن القيم للحكم على المعلومات والذي يراه ابن القيم تحقّق منه بعض الدارسين في علم النفس تطبيقياً . فهناك الدراسة التي أجرتها سعيدة أبو سوسو (١٩٨٦م) حول القيم الدينية والخلقية وأثرها على التوافق النفسي والإجتماعي لدى طالبات الجامعة ، وتكونت عينة البحث من مائة طالبة جامعية مسلمة متدينة ، ومائة طالبة جامعية مسلمة غير متدينة وأخذ الأرباعي الأعلى وأخذ الأرباعي الأدنى على أساس مقياس التشدد في الخلق والدين من مقياس القيم الفارقة ، مع استخدام اختبار التوافق الذي وضعه هيو . م . بيل وقد خرجت الباحثة بالنتيجة التالية : أن هناك ارتباطاً سلبياً بين درجة القيم الدينية والخلقية من ناحية وبين التوافق المنزلي من ناحية أخرى ومدلول ذلك أنه كلما زادت درجة التمسك بالقيم الدينية والخلقية تناقصت مشكلات التوافق المنزلي لدى الطالبات ، ويفسر ذلك بأن التمسك بالقيم الدينية يساعد الطالبة على حسن التوافق المنزلي إضافة إلى إنها قادرة على عقد إتصالات إجتماعية قوية ، وتتسم بالإتزان الإنفعالي بدرجة أكبر من الطالبات الأقل تمسكاً بالقيم والدين . وقد أوضح بعض الدارسين في علم النفس علاقة الدين الإسلامي بقلق الموت والاكتئاب كدراسة الشويعر (١٤٠٩هـ) حول الالتزام الديني في الإسلام وعلاقته بقلق الموت وكانت نتيجة الدراسة أنه كلما ارتفع الالتزام الديني عند الفرد كلما انخفض لديه قلق الموت مما يوضح أهمية الدور الذي يؤديه التزام الفرد دينياً في مواجهة الخوف من الموت .كذلك

أجرى موسى ، وآخرون (١٤١٣هـ) دراسة عن أثر التدين على الاكتئاب النفسي ، وتوضح النتائج المبينة أن الأفراد مرتفعي ومتوسطي التدين أقل حدة في الأعراض الاكتئابية من الأفراد منخفضي التدين . وهناك الدراسة التي أجراها الشهري (١٤١٦هـ) عن الالتزام الديني في الإسلام وعلاقته بالاكتئاب النفسي وأوضحت النتائج أن الأفراد ذوي الالتزام المرتفع أقل حدة في الأعراض الاكتئابية أو أقل شعوراً بالاكتئاب من الأفراد ذوي الالتزام الديني المتوسط والمنخفض ، كما أن الأفراد ذوي الالتزام الديني المتوسط أقل شعوراً بالاكتئاب من الأفراد ذوي الالتزام الديني المنخفض . ومن خلال نتائج هذه الدراسات يرى الباحث اتفاقهم مع ابن القيم حول أهمية الإيمان با لله وتحقيقه للأمن والصحة النفسية وأنه الدافع الأول لملاقاة صعوبات الحياة والسير باطمئنان في منعطفاتها وعدم الخوف إلا من ا لله . كذلك إذا وقعت مصيبة أو وقع مرض على المؤمن فإن أعراضه تكون أقل حدة وأخف أثراً بخلاف إذا وقعت على غير المؤمن أو قليل الإيمان ، يقول نجاتي (١٤١٤هـ) ((إن المؤمن الصادق الإيمان لا يخاف من الأشياء التي يخاف منها معظم الناس عادة وهي : الموت ، والفقر ، والمرض ، كما أنه لا يخاف الناس ولا مصائب الدهر وهو ذو قدرة كبيرة على تحمل المصائب لأنه يرى فيها أنه ابتلاء من ا لله تعالى يجب عليه أن يصبر عليه)) (ص : ٢٧٦) .

٣- التوكل على الله والثقة به وحسن الظن به :-

التوكل من الإيمان وإنما خُص هنا لأهميته وهو لفظ يجمع الإعتماد على ا لله والاستسلام لشرعه والتفويض إليه ويقوم أيضاً على حسن الظن به كل ذلك يؤدي بالإنسان للحياة السعيدة ، يقول ابن القيم : ((وكلما كان العبد حسن الظن با لله ، حسن الرجاء له ، صادق التوكل عليه فإن ا لله لا يخيب

أمله فيه ألبته فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل ولا يضيع عمل عامل فإنه لا أشرح للصدر ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته با لله ورجائه له وحسن ظنه به)) (مدارج ، ج١ : ٤٦٩) فهنا أكد ابن القيم على أهمية الإيمان وكذلك الثقة با لله وحسن الرجاء له في شرح الصدر وجلب الطمأنينة له . وقد أبان ابن القيم عن حقيقة التوكل بذكره لدرجاته المتسلسلة ، فقال : ((إن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها ؛ **الدرجة الأولى :** معرفةٌ بالرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته .

الدرجة الثانية : إثبات في الأسباب والمسببات فإن من نفاها فتوكله مدخول إذ التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع به المكروه فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب .

الدرجة الثالثة : رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل وذلك برفض الأسباب عن القلب فيكون المتوكل منقطعاً منها قلباً متصلاً بها جسماً .

الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على ا لله وسكونه إليه .

الدرجة الخامسة : حسن الظن با لله .

الدرجة السادسة : استسلام القلب لله وانجذاب داعيه إليه .

الدرجة السابعة : التفويض وهو روح التوكل ولُبّه وإلقاء أموره كلها إلى ا لله اختياراً لا كرهاً واضطراراً .

الدرجة الثامنة والأخيرة : الرضا وهو ثمرة التوكل))(مدارج ، ج٢ : ١٢٢)

إذاً ثمرة التوكل الرضا ومعناه القناعة والسعادة القلبية والاطمئنان وهذا يتفق مع جعل التوكل سبباً مهماً لتحقيق الحياة الطيبة والصحة النفسية إذ التوكل يُعطي الإنسان **أمرين مهمين :-**

أولاً : اعتماد القلب بل الإنسان كله على قوة عظيمة وركونه إليها وهي قوة الله مما يدفع الإنسان قُدُماً في حياته عاملاً كادحاً فيستمد قوته من الله تعالى .

ثانياً : التوكل ينفي عن القلب والنفس الحزن والخوف . ينفي عنه الحزن مما وقع به بالأمس لأنه فوض أمره لله وقد قدم ما يستطيع ومن ثم إذا تعسرت الأمور أو كانت النتائج عكسية فإنه راضٍ بذلك لأن قلبه معلق بالله لا بالأشياء الدنيوية .وينفي عنه الخوف من كل شيءٍ سواء من البشر ، أو من الخوف على النتائج فالمطلوب منه العمل وبذل الأسباب لكن لا يتوكل على الأسباب وفي نفس الوقت لا يكون همه وأمله كله مربوطاً بتحقيق الثمرة وإنما مربوط بالله . فإن تحققت الثمرة فحسن وهو المطلوب وإن كانت الأخرى فإنه لا يخاف ولا يحزن من ذلك يقول القرضاوي (١٣٩٩هـ) ((إن معنى التوكل أن يرتب الإنسان المقدمات ويدع النتائج لله وأن يبذر الحب ويرجو الثمار من الرب)) (ص : ٣١٠) وهذه الركيزة مما تفرد بها ابن القيم حيث لم يجد الباحث أحداً تطرق إليها من علماء النفس المحدثين .

٤- التفكر :-

رفع ابن القيم من شأن التفكر أو التفكير ورد كل عمل صحيح أو فاسد إلى أن موجبه وسببه الأول هو الفكر وذكر أنه مصدر كبير للإيمان وبالتالي طريق ومرتكز أساسيٌ للحياة الطيبة حيث يقول : ((فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد ، فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتميز مراتبها في الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها ومعرفة أسبابها الموصلة إليها وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي

السعي في دفع أسبابه وبالجملة فأصل كل طاعة إنما هو الفكر وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة)) (مفتاح ، ج ١ : ١٨٠) وقد اهتمت الدراسات النفسية الحديثة بالتفكر كعملية عقلية ودراسة علاقتها وأثرها على السلوك صحة وعلاجاً مما أدى لبروز المدرسة المعروفة " بالمدرسة السلوكية المعرفية " التي أعادت الاهتمام بالوسائل العقلية الداخلية التي يستخدمها الإنسان في تحليل وتفسير المعلومات التي يستقيها من بيئته ويستخدمها في التخطيط للوصول لغاياته ، يقول بدري (١٤١٣هـ) : ((وقد أثبت هؤلاء العلماء – المدرسة السلوكية المعرفية – أن كل عمل اختياري يقوم به الإنسان يسبقه نشاط فكري داخلي ، وأن العقل الإنساني لا يكف مطلقاً في أي لحظة من لحظات الليل أو النهار عن النشاط الفكري ... إذن فالنشاط الفكري الداخلي للإنسان سواء شعر به الفرد أو لم يشعر به هو الذي يوجه سلوكه وتصرفاته الخارجية)) (ص ٣١) إن هذه النظرة من هذه المدرسة المعرفية ضربة قوية للمدرسة الكلاسيكية السلوكية التي أهملت مشاعر الإنسان وأفكاره بزعم عدم دخوله تحت الملاحظة التجريبية ، إلا أن هؤلاء الجدد أكدوا على عدم إهمال الفكر وبينوا أهميته وقوة علاقته بالسلوك صحة وعلاجاً فكما أنهم يرون أن كل عمل يبدأ بنشاط معرفي داخلي كخاطرة كذلك يرون أن هذا النشاط المعرفي إذا ازداد أصبح دافعاً للسلوك حتى يكون عادة متبعة وإذا أرادوا علاجه فإنهم أولاً يبدءون بمعالجة وتغيير الأفكار المصاحبة للسلوك الخاطئ ... وهذه النظرة تتفق مع نظرة ابن القيم التي تؤكد أهمية الفكر وأنه الأساس للسلوك سواء كان حسناً أو غير ذلك وأن مريد الصحة والسلامة داخلياً وخارجياً عليه الاهتمام بملاحظة خطراته وأفكاره ، وسيزيد الباحث شرحاً لهذه القضية وبيانها في فصل السواء والاضطراب . إلا أنه مما ينبغي التنبيه عليه أن ابن القيم يتميز عن غيره بربط الفكر بالإيمان با لله أمراً

ومصاحبةً وثمرةً ؛ فالله أمر بالتفكر وإعمال النظر والعقل في ملكوت السماء والأرض وفي الإنسان نفسه فهي استجابة لأمر الله ، ثم إن الإيمان يصاحبه الفكر والتفكر وهو باب الفهم وينبوع المعرفة فإن أنتج الفكر ثمرة طيبة صلحت حال المتفكر . وإن كانت الأخرى فسدت الحال . إذاً الفكر عند ابن القيم عبادة شرعية وشعيرة إيمانية وطريقة عقلية مما يزيدها قوة وارتباطاً فهي ليست عملية عقلية لصالح الإنسان في دنياه فقط .

٥- حسن الخلق :-

جعل ابن القيم الصحة والسلامة في الخلق فإن الخلق هو الدين إذ يقول :
((الدين كله خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين))
(مدارج ، ج٢ : ٢٩٤)

وأوضح أن الخلق يقوم على أربعة أركان من الأخلاق فقال : ((وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها :-

الصبر ، والعفة ، والشجاعة ، والعدل

فالصبر يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى والحلم والأناة وعدم الطيش والعجلة .

والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل .

والشجاعة تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته .

والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه بين طرفي الإفراط والتفريط ، وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما وطرفاه خلقان ذميمان ، كالجود يكتنفه خلقا البخل والتبذير ، والتواضع يكتنفه خلقا الذل والمهانة وَ الكبر والعلو)) (مدارج ، ج٢ : ٢٩٤) .

إذاً ابن القيم يشير إلى حسن الخلق مع الله تعالى والناس والنفس ، فالصبر يشير إلى الاحتمال والحلم وهو في معاملة الناس ، والعفة تشير إلى الابتعاد عن الرذائل وذلك يتضمن حسن الخلق مع الله ، والشجاعة تبين مجاهدة النفس على الجود والسعي لمعالي الأمور ويتضمن حسن الخلق مع النفس ، والعدل لابد منه في جميع ذلك ، وذكر ابن القيم أن مدار حسن الخلق مجموع في هذه العبارة : كن مع الخالق بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس . فقال مبيناً ذلك : ((فتأمل ما أجل هاتين الكلمتين مع اختصارهما ، وما أجمعهما لقواعد السلوك ولكل خلق جميل ؟ وفساد الخُلُق إنما ينشأ من توسط الخَلْق بينك وبين الله تعالى وتوسط النفس بينك وبين خلقه ، فمتى عزلت الخلق – حال كونك مع الله تعالى – وعزلت النفس – حال كونك مع الخلق – فقد فزت)) (المرجع السابق ، ج٢ : ٣١٠)

هذا وقد ذكر مرسي (١٤٠٩هـ) أن حسن الخلق هو الصحة النفسية وذلك إذا عرفنا الصحة بمدلولها العام في الإسلام ، بينما تعريف علماء النفس لها وتحديد سبل تحصيلها ناقص ، لكنها تتداخل وتتكامل حينما نأتي إلى مفهوم حسن الخلق في الإسلام ويكون التعريف المقترح منه للصحة النفسية بأن حسن الخلق يجعل المسلم في سلام مع نفسه وانسجام مع الناس وقرب من الله وقد أوضح مرسي (١٤٠٩هـ) أن مجالات حسن الخلق أربعة مع الله والناس والنفس والجسم وذلك لكي ينمو بأبعاده الأربعة : الجسمية والنفسية والاجتماعية والروحية ، وهذا يتفق إلى حد كبير مع ما ذكره ابن القيم في أصول الخلق وأركانه ومن التخلق مع الله والخلق .

وقد أشار ابن القيم إلى أن الخُلُق يكون طبيعة أي هبة من الله ويكون كسبياً وذلك عن طريق المجاهدة يقول : ((فإن قلت هل يمكن أن يقع الخُلُق كسبياً ؟ أم هو أمرٌ خارج عن الكسب ؟ قلت يمكن أن يقع كسبياً بالتخلق

والتكلف حتى يصير له سجية وملكة)) (المرجع السابق ، ج٢ : ٣٠٠) وقد شارك (مرسي ، ١٤٠٩هـ) ابن القيم رأيه بقوله : ((يقوم حسن الخلق على عمل الواجبات والابتعاد عن الانحرافات وهما ليسا بالأمر السهل لأنهما يتطلبان مجاهدة للنفس حتى تقبل واجباتها ، وتحسن القيام بها)) (ص ٨) وقال أيضاً : ((وارتباط الصحة النفسية بالإيمان وحسن الخلق يعني أن الصحة النفسية لا تُعطى للفرد لكنه يكتسبها بجده واجتهاده في عمل ما يربطه بربه ، ويزكي نفسه ويحفظ حياته ويوطد علاقته بالناس)) (ص ٢) وابن القيم يوسع مفهوم الخلق تبعاً لنظرته الامتدادية الواسعة ومصادره المتعددة إلى الخلق مع الله بل ربما يكتفي بالله عن الناس وذلك أن تكون مع الله بلا خلق ، وهنا يشير مرسي (١٤٠٩هـ) أيضاً فيذكر من علامات حسن الخلق : ((والاكتفاء بالله عن الناس ، فالشخص حسن الخلق لا يكتفي بنفسه عن الناس كما يذهب علماء النفس بل يكتفي بالله عمن سواه)) (ص ٢٥)

٦- الصبر :-

أبرز ابن القيم أهمية الصبر وجعله متطلباً مهماً لنيل الحياة السعيدة فقال أثناء حديثه عن طلب السعادة الحقيقية : ((وهذا - طلب السعادة - يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يؤمل عند الغاية ، فإذا فقد الصبر واليقين تعذر عليه ذلك ، وإذا قوي يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير واللذة الدائمة)) (الفوائد : ٢٠١)

وأوضح ابن القيم أن الصبر يشمل فعل الطاعة واجتناب المعصية والرضا بالقضاء وبمعنى آخر يرى الصبر تحمل التكاليف الشرعية وتحقيق العبودية والرضا بالمقدور ومن ثم يستحق أن يسمى صابراً ، يقول في ذلك :

((والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد وهو ثلاثة أنواع : صبر على فرائض الله فلا يضيعها ، وصبر عن محارمه فلا يرتكبها ، وصبر على أقضيته وأقداره فلا يتسخطها ، ومن استكمل هذه المراتب الثلاث : استكمل الصبر ولذة الدنيا والآخرة ونعيمهما والفوز والظفر فيهما لا يصل إليه أحد إلا على جسر الصبر فالشجاعة والعفة والجود والإيثار كله صبر ساعة))
(الطب ، ص : ٥٠٤)

وقد أشارت الدراسات النفسية إلى بعض ما عناه ابن القيم عندما ساق الباحث بعض المرتكزات لتحقيق الصحة النفسية وذكر منها : القدرة على ضبط الذات وتحمل المسؤولية ، والقدرة على مواجهة الصراعات والإحباط والأزمات وأطلق على ذلك فهمي (١٣٩٠هـ) القدرة على الصمود . وعرفه مرسي (١٤٠٩هـ) ((بأنه تحمل الإحباط دون قلق ، ومواجهة المكاره دون جزع ، وتقبل المصائب دون هلع . وذكر " بيرسل " أنه تبين من دراسات كثيرة أن سبب الانهيارات النفسية والأمراض الجسمية في المصائب ليست من شدتها وقسوتها ، ولكن من عدم الصبر عليها ، وسوء التفكير فيها والجزع منها)) (مرسي ، ١٤٠٩هـ ، ص : ١٥) وأكد عيسوي (١٤٠٦هـ) على أهمية الصبر أيضاً بقوله : ((والصبر يفيد في تربية النفس وتقوية الإرادة وصقل الشخصية وينمي قدرة الإنسان على الجلد والتحمل وتقبل نوائب الدهر وصعاب الحياة)) (ص :١٩٤) . ويلاحظ الباحث أن الدراسات النفسية تهتم بالصبر المتمحور حول تحمل المصائب ومواجهة الشدائد وهو ما عبر عنه ابن القيم بالصبر على أقضية الله وأقداره . أما النوعان الآخران من الصبر فلم يتضح عندهم ارتباطه بالصبر . وقد أشار إلى النوعين الآخرين نجاتي (١٤١٣هـ) أثناء كلامه عن ارتباط الصبر بالمثابرة فقال : ((والصبر يعلِّم الإنسان المثابرة على العمل وبذل المجهود لتحقيق أهدافه العملية والعلمية

والصبر والمثابرة مرتبطان بقوة الإرادة ، فالشخص الصابر قوي الإرادة لا تضعف عزيمته ولا تثبط همته مهما لقي من مصاعب وعقبات)) (ص ٢٩٩) والصبر عن المعصية أشار إليه قطب (١٤٠٣هـ) بعملية الضبط حين قال : ((يلجأ الإسلام دائماً إلى عملية " الضبط " يكل إليها أن تحد من تيار الشهوة وعملية الضبط لا تتعرض للشهوة في منبتها إنما مهمته أن ينظم مساربها وينظفها ويتحكم في القدر الذي يُصرح به منها وهذا الضبط الواعي يختلف في طبيعته اختلافاً أساسياً عن الكبت اللاشعوري وينجو من أضراره جميعاً لأنه يعترف بحق الشهوة في أن توجد ولكنه " يعلق " تنفيذها العملي إلى اللحظة المناسبة – وهو الصبر –)) (ص : ٩١) مع أنه لا يمنع أن يدخل الضبط في عملية الصبر على طاعة الله إلا أن الضبط يتعامل كثيراً مع الصبر عن معصية الله . ومن خلال ذلك يتبين للباحث تأكيد ابن القيم والدراسات النفسية للصبر وأثره في تحقيق الكمال والسعادة ، إلا أن الدراسات النفسية اهتمت كثيراً بنوع واحد من الصبر وعلقته بتحقيق الهدوء والمصلحة الدنيوية بيد أن ابن القيم ومن اتفق معه من علماء النفس تكلم عن الصبر بمفهوم أوسع يشمل الصبر على الطاعة وهو المثابرة والجد لمعالي الأمور ، والصبر عن المعصية وتعني عملية الضبط للشهوة والهوى ، والصبر على الأقدار المؤلمة وتعني الرضا والصمود أمامها وعدم السقوط في عقباتها . زيادة على ذلك أن ابن القيم ربط التحمل والصبر لما يرجوه غداً وهي الغاية الكبرى ويصور ذلك " الاحتساب " وطلب الأجر والثواب من الله رضى ونعيماً في الدنيا ونجاةً ونعيماً في الآخرة يقول مرسي (١٤٠٩هـ) ((فتصبير النفس على ما تكره بدون إيمان بالله قائم على الرضا بالعجز عن تغيير الأمر الواقع ، وفيه استسلام للقدر المحتوم ، بهدف تخفيف التوتر والقلق الناتج عن عدم الرضا والشعور بالعجز . أما تصبير النفس على ما تكره تعبداً وتقرباً إلى الله فقائم على الرضا

بقضاء الله واستسلام لقدره وطرد لمشاعر العجز والإنهزامية لأن المؤمن يعتقد أن أمره كله خير)) (ص : ١٥) إن الصبر بمجالاته الثلاثة يفضي بالإنسان إلى الحياة الطيبة والسعادة الحقيقية يذكر نجاتي (١٤١٤هـ) ((أن الإنسان إذا تعلم الصبر على عبادة الله وطاعته ، وعلى مقاومة شهواته وانفعالاته ، والصبر على العمل والانتاج ، فإنه يصبح إنساناً ذا شخصية ناضجة متزنة ، متكاملة ، منتجة ، فعالة ويصبح عصياً على القلق وفي مأمن من الاضطرابات النفسية)) (ص : ٣٠٠)

٧- علو الهمة والجد (الطموح) :-

أكد ابن القيم على أهمية علو الهمة وشرفها والاجتهاد في تحقيق المراد " الهدف " وجعل كل ذلك سبباً عظيماً للوصول للحياة الطيبة يقول : ((وكما أن علو الهمة وصدق الإرادة والطلب من كمال الحياة فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة الطيبة وأخس الناس حياةً أخسهم همةً وأضعفهم محبةً وطلباً)) (مدارج ، ج٣ : ٢٤٧) ويبين ابن القيم حقيقة الهمة المطلوبة : ((أن لاتقف دون الله ولا تتعوض عنه بشيء سواه ، ولا ترضى بغيره بدلاً منه ؛ فالهمة العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور لا يرضى بمساقطهم ولا تصل الآفات إليها ، وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان))
(المرجع السابق ، ج٣ : ١٦٣)

ويرى كذلك أن عالي الهمة لابد أن يشمر عن ساق الجد والاجتهاد وذلك لتحصيل الكمال والسعادة المرادة وإلى ذلك أشار بقوله : ((إنه قد استقرت حكمة الله أن السعادة والنعيم والراحة لا يوصل إليها إلا على جسر المشقة والتعب ولا يدخل إليها إلا من باب المكاره والصبر وتحمل المشاق ، وأن العقلاء قاطبة متفقون على استحسان إتعاب النفوس في تحصيل كمالاتها من

العلم النافع والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة)) (شفاء : ٤٩٠) وهو يؤكد أن طلب السعادة في بدايته مشقة وألم لكن من ارتفعت همته وعلت ، صبرَ وجدَّ حتى يبلغ مناه ولابد من ذلك فالجد والفوز لا ينفصمان أبداً وفي ذلك يقول : ((السعادة وإن كانت في ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة والكره والتأذي ومتى أُكْرِهت النفس عليها وسيقت طائعة وكارهة إليها وصبرت على لأوائها وشدتها أفضت منها إلى رياض مونقة ومقاعد صدق ومقام كريم تجد كل لذة دونها فالمكارم منوطة بالمكاره والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة فلا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد . قال مسلم في صحيحه قال يحيى بن كثير : (لا ينال العلم براحة الجسم) وقد قيل من طلب الراحة ترك الراحة :

فيا وصل الحبيب أما إليه بغير مشقة أبداً طريق))

(مفتاح ،ج١: ١٠٩)

وقد ألمح بعض الدارسين النفسيين إلى هذه الركيزة التي ذكرها ابن القيم فقد أدخلها الهابط (١٤٠٧هـ) تحت الإرادة القوية وكذلك تحت التحمس والإقبال على الحياة . وقد أشار إسماعيل إلى الجد وعلو الهمة أثناء ذكره للخصائص السلوكية للشخصية السوية فذكر منها : ((مستوى الطموح وهو أن يضع الشخص نصب عينيه مستويات يسعى إليها حتى لو كانت في بعض الأحيان بعيدة المنال فالتوافق المتكامل ليس معناه تحقيق الكمال ، بل معناه الجهاد والعمل المستمر طبقاً لخير ما يمكن أن يتصوره من مبادئ))

(موسى وآخرون ، ١٤١٣هـ : ٣٣٠)

وهنا يرى الباحث اتفاق كلٍ من ابن القيم والدراسات النفسية في أهمية علو الهمة ومستوى الطموح في تحقيق الحياة الطيبة والكمال الإنساني وأكدوا على حتمية ملاقاة التعب الذي يعرض لمريد الكمالات المتعددة . إلا أن ابن القيم

ربط علو الهمة بعبادة الله وما يوصل إليه من علم نافع وعمل صالح فهي غاية الغايات عنده وهذا ما لم يذكره علماء النفس . وإنما اقتصروا على ربط الجد والطموح باللذة والإنتاج والإبداع وإفادة الآخرين .

٨ - التنظيم و ((المحافظة على الوقت)) : -

أشار ابن القيم إلى أهمية التنظيم وذلك باستخدام العقل والفقه وأن ذلك مردُّ الخسران والنجاح فقال : ((ثم الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول : خطرات يستجلب بها العبد منافع دنياه وخطرات يستدفع بها مضار دنياه ، وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته ، وخطرات يستدفع بها مضار آخرته ، فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسام الأربعة ، فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه لم يتركه لغيره ، وإذا تزاحمت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذي يخشى فوته فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ومن هنا ارتفع ، ونجح من نجح وخاب من خاب)) (الجواب : ٢٧٧) وبرز في هذا النص بيان أهمية التنظيم وذلك في تقسيم الخطرات الواردة على القلب ، وكذلك برز في تقديم الأهم وتأخير المهم وكل ذلك يحتاج لعقل وفقه ومعرفة . إن كلامه ذلك يحقق عدة مصالح منها : استثمار الفرص واستغلال القدرات وكذلك المحافظة على الوقت بحيث لا يشتغل بشيء أقل أهمية بالنسبة لشيء أكثر أهمية وأكبر نفعاً . وقد جعل ابن القيم المحافظة على الوقت من أسباب النجاح والفلاح حيث يقول : ((وإذا أراد الله بالعبد خيراً أعانه بالوقت وجعل وقته مساعداً له ، وإذا أراد به شراً جعل وقته عليه وناكَدَه وقتُهُ فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده الوقت ، والأول كلما همت نفسه بالقعود أقامه الوقت وساعده))
(مدارج ، ج٣ : ١٢٥)

إن الدراسات النفسية الحديثة لم تشر إلى هذه الركيزة اللهم إلا ما يندرج تحت مستوى الطموح أو تحديد الأهداف الواقعية وذلك بأن تتفق الأهداف مع قدرات الشخص لأجل أن يستفيد من حياته ولا يفشل فيؤدي به ذلك إلى السلبية أو الخسارة .

٩- الاهتمام بغذاء البدن والقلب ((الروح)) :-

أكد ابن القيم كثيراً على وجوب الاهتمام بغذاء القلب بالعلم والإيمان ، وعلى وجوب الاهتمام بغذاء البدن ووجوب الاعتدال في ذلك ، فأما غذاء القلب فهو ((معرفة فاطره ومحبته وتوحيده ، والسرور به ، والابتهاج بحبه ، والرضا عنه ، والتوكل عليه ، والحب فيه والبغض فيه ولا نعيم له ولا سرور ولا لذة - بل ولا حياة - إلا بذلك . وهذا بمنزلة الغذاء والصحة والحياة . فإذا فقد غذاءه وصحته وحياته فالهموم والغموم والأحزان مسارعة من كل صوب إليه)) (الطب : ٣٥٢) وأما غذاء البدن فقال فيه : ((فيحتاج البدن إلى ما به يخلف عليه ما حللته الحرارة - ضرورة بقائه - وهو الطعام والشراب ، ومتى زاد مقدار التحلل : ضعفت الحرارة عن تحليل فضلاته ، فاستحالت مواد رديئة : فعاثت في البدن وأفسدت فحصلت الأمراض المتنوعة)) (المرجع السابق : ٤٦٤) وقال عن الصحة القلبية والبدنية ووجوب حفظهما ((ولما كانت الصحة من أجل نعم الله على عبده وأجزل عطاياه وأوفر منحه - بل العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق فحقيق لمن رزق حظاً من التوفيق ، مراعاتها وحفظها ، وحمايتها عما يضادها))
(المرجع السابق : ٤٦٦)

وقد أشار ابن القيم إلى تأثر وتأثير كل من القلب والبدن بالآخر فقال في معرض كلامه عن غذاء البدن : ((فامتلاء البطن من الطعام مضر للقلب

والبـدن)) (المرجـع السـابق : ١١٠) . وقـال أيضـاً : ((والضـرر الـذي يلحــق الإنسان قد يكون من سوء المزاج بخروجه عن الاعتدال وقد يكون مــن فسـاد العضــو ، وقــد يكــون مــن ضعــف في القــوى والأرواح الحاملــة لهـــا))

(المرجـع السـابق : ٩٠)

وقال أيضاً في ثنايـا كلامـه عـن أسباب القـي أن مـن أسـبابه : ((الأعـراض النفسانية كالهم الشديد والغم والحزن وغلبة اشتغال الطبيعة والقوى الطبيعية به واهتمامها بوروده عن تدبير البدن وإصلاح الغذاء وإنضاجه وهضمه ؛ فتقذفـه المعدة ، وقد يكون لأجل تحرك الأخلاط عند تخبط النفـس . فـإن كـل واحـد مــن النفـس والبــدن ينفعــل عــن صاحبـه ويؤثــر كيفيتــه في كيفيتـــه))

(المرجع السابق : ٣٧٣)

إن ابن القيم يشير في هذه الركيزة مؤكـداً علـى العلاقـة بـين الجسـم والقلـب " الروح " مرضاً وصحة وقد اتفقت الدراسات النفسية مع نظرته لذلك أثنـاء كلامهم عن الاهتمام والعناية بالجسـم والنفـس معـاً إلا أنـه اختلـف عنهـم في مصادر غذاء النفس " الروح " وضوابـط غـذاء الجسـم " البـدن " فـابن القيـم يشير إلى القرآن والسـنة المثمـران علمـاً نافعـاً وعمـ ؕ صالحـاً وذلـك في غـذاء النفس ويذكر الحـلال والحـرام في غـذاء الجسـم بينمـا في الدراسـات النفسـية ناقصة في المصادر ، أما الضوابط فأهم شيء عدم ضرره في الدنيا ولا يعرجـون على الآخرة لعدم إيمانهم بها .

١٠-المحاسبة :-

يقصد ابن القيم بالمحاسبة متابعة الإنسان لنفسه عملاً وقولاً واعتقاداً ومعرفة نتائج ذلك هل هي حسنة أم سيئة ، فما كان حسناً يزداد منه وما كـان سيئاً يباعد عنه . وقد أكد على أهمية المحاسـبة وضرورتهـا لتحقيـق السـعادة فقـال

أثناء كلامه عن السكينة وهي الطمأنينة التي يلقيها الله في قلوب أوليائه :

((السكينة عند المعاملة وتحصل بثلاثة أشياء :

أحدها : محاسبتها على طاعة قصر فيها من حق الله فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي .

الثاني : أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله .

الثالث : أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد لم فعله ؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحاً ؟)) (إغاثة ، ج١ : ١٣٢) .

إن المحاسبة عند ابن القيم مرتبطة بالعبودية لله تعالى وتشمل التخطيط قبل العمل والرقابة أثناءه والمراجعة بعد العمل فهي لفظ شامل لهذه المعاني يتضمن جميع سلوكيات ومشاعر الإنسان ونشاطاته ، إن المحاسبة بهذا المعنى لم تتطرق إليها الدراسات النفسية بشكل كبير وذلك لغياب العبودية لله تعالى ، وإنما ترد في العملية الإرشادية تحت مسمى " التقويم والمتابعة " وذلك بتقويم عملية الإرشاد في ضوء نتائجها وآثارها ومتابعة الحسن لزيادته والسيء لإزالته ، وقد أشار لبعض معاني ابن القيم نورثفيلد (د .ت .) فقال : ((ويحسن أن تجلس في ساعات المساء الأخيرة قبل أن تأوي إلى فراشك مسترخياً في مقعد ، استرح جسدياً وعقلياً واترك فكرك يجوس خلال صور بهيجة ، تأمل في نجاحك الذي أحرزته حتى هذا الوقت في بناء نفسك وشخصيتك وعاداتك الطيبة . تأمل في عملك وما حصلت عليه فيه من تقدم . فكر في رفاقك الطيبين وأصدقائك الخلصاء . ولربما ارتكبت خطأً ما في عملك أو نحو أحد الأشخاص . لا تفكر في هذا الخطأ وإنما فكر في الوسائل لمنع تكراره إنك بهذه الطريقة تبني حياتك وتسعد أيامك وتجعلها أكثر غنى وخصوبة ومتعة)) (ص : ٨٨)

إن هذا الكلام يتفق مع كلام ابن القيم حول أهمية المحاسبة وأثرها في زيادة

نجاح الإنسان وجعل حياته أكثر سعادة وهناء إلا أن ابـن القيـم ربـط المحاسـبة با لله تعالى وخلقه والنفس فهي تدور مع الطاعة وزيادتها والمعصيـة وإزالتهـا ، أما " نورثفيلد " فربط المحاسـبة بـالنفس والآخريـن وجعلهـا محصـورة لسـعادة الأيام الدنيوية . واتفق مرسي (١٤١٠هـ) مع ابن القيم في نظرته كلهـا فقـال ((فمحاسـبة الإنسـان لنفسـه ، وتقويمـه لجهـوده يوقفـه علـى جوانـب القـوة والضعف ، والإفراط والتفريط في واجباته ، فيصلح أمر نفسـه قبـل أن يحاسـبه الآخرون على أخطائـه في الدنيـا ، وقبـل أن يحاسـبه ا لله عليهـا في الآخـرة)) (ص ٣٤)

١١-الاستغفار والتوبة :-

أشار ابن القيم أن الاستغفار والتوبة تأتي بعـد المحاسـبة والمراجعـة للأعمـال الماضية وبيَّن حقيقتها فقال ((التوبة لا تصح إلا بعد معرفة الذنب والاعـتراف به وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وأخراً)) (مدارج ، ج١ : ١٩٧) وقـال ((فإن حقيقة التوبة الرجوع إلى ا لله بالتزام فعل ما يحب ، وترك ما يكره فهي رجـوع مـن مكـروه إلى محبـوب ، فـالرجوع إلى المحبـوب جـزء مسـماها ، والرجـوع إلى المكـروه الجـزء الآخـر)) (المرجـع السـابق ، ج١ : ٣١٣) وذكـر حكمها والمسارعة فيها فقال ((إن المبادرة إلى التوبة مـن الذنـب فـرض علـى الفور ، ولا يجوز تأخرها ، فمتى أخرها عصى بالتأخر . فإذا تاب من الذنـب بقي عليه توبة أخرى وهي توبته من تأخير التوبة))(المرجع السـابق ، ج١ : ٢٨٣) وأكد ابن القيم على أهميتها ولزومها للعبد دائماً فقال : ((ومنزل التوبة أول المنازل - الطرق - وأوسطها ، وآخرها فلا يفارقهـا العبـد السـالك ولا يـزال فيها إلى الممات فالتوبة هي بداية الصبر ونهايته)) (المرجـع السـابق ، ج١ : ١٩٦) وربط ابن القيم بين الاستغفار والتوبة وتحقيق السـعادة وذلـك أن التوبـة تزيـل

الحجاب وترفع الموانع وتنظف القلب فيصبح مقبلاً سعيداً وفي ذلك يقول : ((فالتوحيد يدخل العبد على الله ، والاستغفار والتوبة يرفع المانع ويزيل الحجاب الذي يحجب القلب عن الوصول إليه فإذا وصل إليه زال عنه همه وغمه وحزنه وإذا انقطع عنه حصرته الهموم والغموم والأحزان وأتته من كل طريق ، ودخلت عليه من كل باب)) (شفاء : ٥٨٨) وبرهن ابن القيم على كلامه بأن هذا مما اتفقت عليه الملل وأشار إليه العقلاء فقال : ((وأما تأثير الاستغفار في دفع الهم والغم والضيق فمما اشترك في العلم به أهل الملل وعقلاء كل أمة : أن المعاصي والفساد توجب الهم والغم والخوف وضيق الصدر ، وأمراض القلب ، حتى إن أهلها إذا قضوا منها أوطارهم وسئمتها نفوسهم ارتكبوها دفعاً لما يجدونه في صدورهم من الضيق والهم والغم وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب فلا دواء لها إلا الاستغفار والتوبة))
(الطب ، ص : ٣٥٩)

هذا وقد فرق ابن القيم تفريقاً لطيفاً بين الاستغفار والتوبة ومن ذلك قوله : ((فالاستغفار يتضمن التوبة ، والتوبة تتضمن الاستغفار ، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق ، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار : طلب وقاية شر ما مضى ، والتوبة : الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله)) (مدارج ، ج١ : ٣١٥)

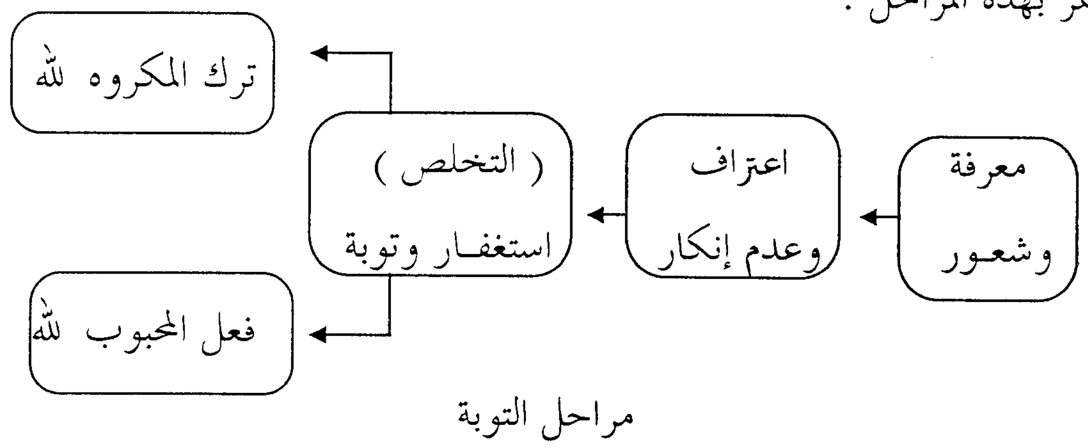
إذاً يصل الباحث لعدة نتائج حول التوبة من وجهة نظر ابن القيم :

١- أن التوبة لازمة للإنسان في حياته دائماً وأنها واجبة على الفور فلا يجوز تأخيرها .

٢- أن السعادة والطمأنينة لا تتحقق إلا بها فهي محو الآثار السيئة للذنوب وتفاؤل لما يستقبله الإنسان .

٣- أنها لا تحتاج لواسطةٍ كمعالج أو عالم وإنما يتوجه الإنسان مباشرة إلى الله معترفاً مقبلاً عليه ولا يعدو دور المعالج أو العالم أن يكون مجرد المساعدة أو فتح باب الرجاء .

٤- أن التوبة عملية نفسية " قلبية " إرادية واعية ، ومعرفة بالذنب وخطورته ومن ثم تكون هذه المعرفة والشعور بآثارها ونتائجها هي التي تحثه على المسارعة للتوبة . وهنا يرى الباحث أن الشعور بالذنب أمر مطلوب للتوبة من الذنب إذ الشعور به الباب الأول لمعرفته والتوبة منه . وإنما الخطر والخطأ إذا تعاظم التفكير بالذنب واشتد وقَعَد بالإنسان حتى يظن الإنسان أن الله لن يغفر له وهذا قدح في التوحيد ويأس من روح الله فيصل إلى القنوط وهو كفر إذاً ليس هناك علاقة سلبية بين الشعور بالذنب والتوبة بل هما متلازمان لا ينفكان أبداً وذلك لحفز المذنب على العمل والطاعة . فالتوبة عند ابن القيم تمر بهذه المراحل :



مراحل التوبة

إن مفهوم الشعور بالذنب عند علماء النفس وخاصة التحليليين مرتبط بالتعاسة وتحقير الذات ، وهذا الربط من وجهة نظر الباحث ليس مطرداً بل الغالب أن الشعور بالذنب والخطأ شرط لتحقيق النجاح والاستقرار ، لأنك متى شعرت بخطئك وذنبك بادرت بالتصحيح ، وكذلك لأنهم ربطوه بذنوب لا شعورية خاصة بالميل للمحارم أو الأم مما يؤنب الإنسان وإلى ذلك أشار فهمي (١٤٠٧ هـ) ((إن الشعور بالخطيئة أو الذنب عند " فرويد "

يرجع إلى رغبات محرمة كعشق الأم " عقدة أوديب " والشعور بالخطيئة عند " فرويد " من الأسباب المهمة لتكوين " العصاب " إن الخطيئة في نظر " فرويد " عبارة عن مشاعر بالمستقبل وليست بالماضي ، أمور تتصل بنزعات يرغب الفرد في ممارستها ، ولكنه لا يجرؤ على ذلك ، في حين يرى أصحاب " المذهب الديني " أن الخطيئة تتصل بأمور تتعلق بالماضي ، ومن هذا المفهوم لا تتعلق الخطيئة بالكبت أو الإعاقة أو الحرمان)) (ص ٣٦٩) . نعم تتفق الدراسات النفسية وابن القيم على أن الذنوب تهز الإنسان وتقلقه ، ولكن هل مجرد الشعور سبب للمرض أو للصحة ؟ إن ابن القيم يرى أنه سبب للصحة ، وهم يرون ذلك سبباً للتوتر وتعذيباً للذات ، ويتفق مرسي (١٤١٠ هـ) مع ابن القيم فيقول : ((ويحرص المعالجون النفسيون على علاج مشاعر الذنب العصابي عند المجرمين والمضطربين نفسياً عن طريق تبصيرهم بأخطائهم وذنوبهم بموضوعية ، فلا يلومون أنفسهم لوماً زائداً ، ولا يبالغون في تحقيرها ، باعتبار أن أخطاءهم محتملة ، يمكن الإقلاع عنها والتخلص منها)) (ص : ٣٥) ويمكن أن يصل الباحث إلى تفريق بين نوعين من مشاعر الذنب هما :

١- مشاعر سالبة وهي المقنطة القاتلة للإنسان وذاته التي تحول بين الإنسان والتصحيح .

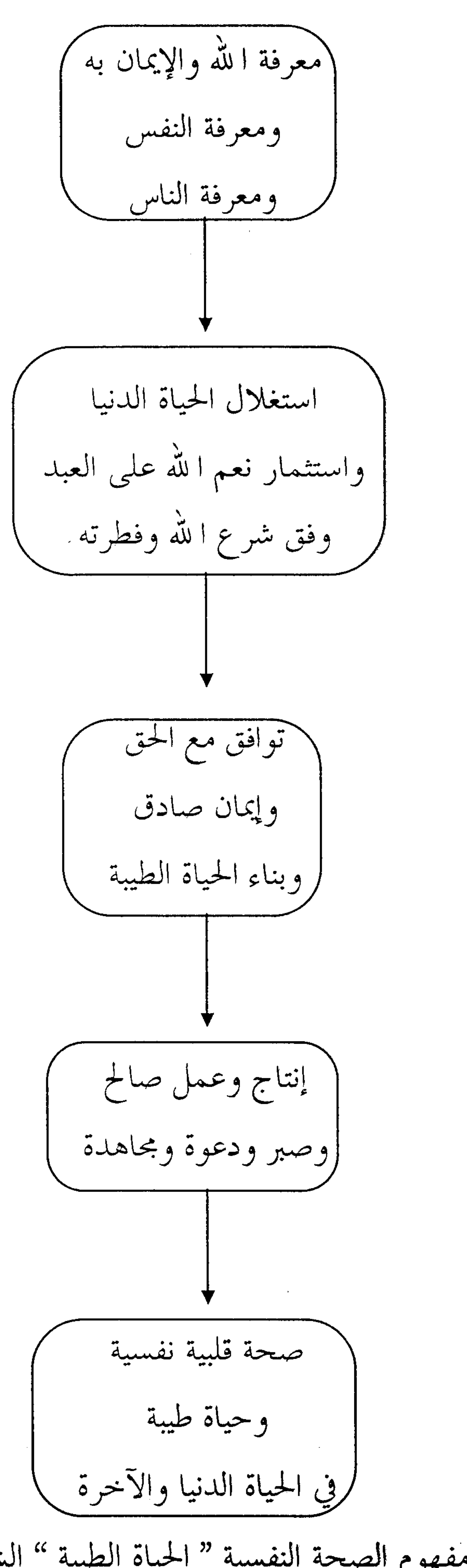
٢- مشاعر إيجابية وهي التي تقف الإنسان على خطأه ، ومعرفة أثره على النفس ومن ثم التصحيح .

والثاني يعبر عن شخصية سوية مريدة للكمال البشري والحياة الطيبة ومن ذلك ما أشار إليه مرسي (١٤١٠ هـ) ((فالتوبة عملية نفسية صحية يتم فيها التخلص من مشاعر الذنب " السلبية " وتحويل أفكار العجز والتشاؤم والحط من شأن الذات إلى أفكار ومشاعر كفاءة وتفاؤل ورفع من شأن

الذات " المشاعر الإيجابية " ،فينبعث في النفس تفاؤل ورضا ، وإقبال على الحياة ورغبة في الإصلاح وترك الأخطاء)) (ص ٣٦) .

وأكد ذلك قطب (١٤٠٣ هـ) حينما تكلم عن قصة رجم ماعز والغامدية رضي الله عنهما ، بعد اعترافهما وإقبالهما وتوبتهما قال : ((هناك فرق بين الشعور بالإثم الذي يقول " فرويد " أنه كامن في اللاشعور ، وإنه يدفع الناس إلى طلب توقيع العقوبة عليهم على جرائم لم يرتكبوها ، أو إلى تعذيب النفس تكفيراً عن هذا الإثم الخفي ، وبين هذا الشعور الواعي بجريمة محددة ، ومما يلاحظ كذلك أنهما لم يقتلا نفسيهما ، ولم يعرضا أنفسهما لمخاطر قد تقضي عليهما ، لإراحة ضميرهما القلق ، وإنما تقدما إلى رسول الله ﷺ ليطهرهما طمعاً في رضاء الله ومغفرته)) (ص ١٠٨) .

وبعد عرض المرتكزات من وجهة نظر ابن القيم ؛ يصل الباحث إلى أن ابن القيم جمع في مرتكزاته العناية بـ " الروح " النفس ، والعقل ، والجسم ، وبين معرفة الله والإيمان به ، ومعرفة النفس وحاجتها لله ، وفهم المجتمع والتعامل معهم ، ويحكم ذلك كله العلم النافع والعمل الصالح ، مما يثمر الانتاج والعمل الدؤوب ، والدعوة والمصابرة ، كل ذلك يفضي بالإنسان لحياة طيبة وصحة نفسية في الدارين الدنيا والآخرة والشكل التالي يوضح ذلك :



مفهوم الصحة النفسية " الحياة الطيبة " الشامل

التوافق حدوده وعوائقه

١- مفهوم التوافق :

نظراً للعلاقة القوية بين التوافق والصحة النفسية فإن الباحث يرى أهمية معرفة وجهة نظر ابن القيم حول هذا الأمر ومقارنته مع الدراسات النفسية الحديثة وسيكون ذلك في عدة نقاط :-

أ- الإنسان مدني بطبعه ((التوافق النفسي والاجتماعي))

أشار ابن القيم إلى هذه القضية وأن الإنسان مجبول على محبة الخلطة والاجتماع بالناس ويقرر هذا الشيء بقوله : ((وهو أن الإنسان مدني بالطبع لابد له أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصورات ، واعتقادات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه ، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر ، فلا بد له من الناس ومخالطتهم ، ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم)) (إغاثة ، ج٢ : ٢٧٨) ويتحدث ابن القيم عن نوعي التوافق النفسي والاجتماعي ، مبيناً أنه عن طريقهما يحصل الألم والسرور فيقول في ذلك : فإن الإنسان خلق عرضة للذة والألم والسرور والحزن والفرح والغم وذلك من جهتين :

١- من جهة تركيبه وطبيعته وهيئته : فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجه بل لابد أن يبغي بعضها على بعض فتخرج عن حد الاعتدال ، فيحصل الألم .

٢- ومن جهة بني جنسه : فإنه مدني بالطبع لا يمكن أن يعيش وحده بل ولا يعيش إلا معهم ، ولهم لذات ومطالب متضادة ومتعارضة لا يمكن الجمع بينهما فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته وإن لم يوافقهم آذوه

وعذبوه كما لم يوافقهم على مراداتهم)) (شفاء ، ٥٢٩) . ويتضح من خلال هذا النص إشارة ابن القيم إلى التوافق الداخلي النفسي وذلك في النقطة الأولى وذكر أنه عزيز ويحتاج إلى جهد ليصل الإنسان إلى الاعتدال ثم السرور ، وأشار إلى التوافق الخارجي الاجتماعي في النقطة الثانية ذاكراً أن لكل من الفرد والمجتمع مطالبَ لكنها في الغالب متضادة ومتعارضة ولذا يحصل الألم ويعز التوفيق بينهما لاختلاف الأهواء والأذواق .

ب – موافقة الحق لا الخلق وارتباط الحياة بالهدف الأخروي

يؤكد ابن القيم على أن العدل والأولى بالإنسان موافقة الحق والشرع لا متابعة الناس والخلق أو إهمال الحق لأجل رضا النفس أو ثناء الخلق ، ولذلك فهو بين أن الصبر على مخالفة الناس في باطلهم أسهل من عذاب الله وعقابه وفي ذلك يقول : ((ولا ريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المترتب على موافقتهم ، فمعرفة هذا ومراعاته من أنفع ما للعبد فألم يسير يُعْقِبُ لذة عظيمة دائمة أولى بالاحتمال من لذة يسيرة تُعْقِبُ ألماً عظيماً دائماً)) (إغاثة ، ج٢، ٢٧٨) . ويرى أن تحمُّ َ مخالفة الناس على باطلهم يستوجبه العقل والدين فقال : ((فالعقل والدين والمروءة والعلم تأمره باحتمال أخف الألمين تخلصاً من أشدهما ، وبإيثار المنقطع منهما لينجو من الدائم المستمر)) (شفاء : ٥٢٩) .

إن ابن القيم يربط بين الموافقة في الدنيا مع الألم أو النعيم في الآخرة ويؤكد على ضرورة تحمل ألم الدنيا للتخلص من ألم الآخرة ، ويهون ابن القيم مخالفة الناس في باطلهم على الإنسان آمراً له بالصبر قائلاً : ((ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلى الله ورسوله ولو كنت وحدك فإن الله معك وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك وإنما امتحن يقينك

وصبرك)) (الفوائد : ١٦٩) ويبين ابن القيم أن العبرة ليست بكثرة الفاعلين لعمل معين لكي يعمله بل لا يلتفت لمسايرة الناس على أعمالهم خاصة إذا كانت مخالفة للحق يقول في أثناء كلامه على آية :

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ (سورة النساء : ٦٩)

((فأضاف الصراط إلى الرفيق والسالكين له وهم الذين أنعم الله عليهم ، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم ، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه فإنهم الأقلون قدراً ، وإن كانوا الأكثرين عدداً كما قال بعض السلف : عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين)) (مدارج ، ج١ : ٤٥)

ج- الضابط في الموافقة ((التوافق الاجتماعي)) :-

أوضح ابن القيم متى تكون المخالفة والموافقة للناس مناسبة وحسنة ومتى ينبغي تركهم واعتزالهم وذلك بذكره لضابط دقيق للتوافق الاجتماعي فقال : ((والضابط النافع في أمر الخلطة : أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والأعياد والحج ، وتعلم العلم ، والجهاد ، والنصيحة ، ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر و لم يمكنه اعتزالهم فالحذر الحذر أن يوافقهم وليصبر على أذاهم)) (مدارج ، ج١ : ٤٥٢) وذكر ابن القيم أن أكثر الناس طرفا نقيض فبعضهم اعتزل الناس دائماً حتى في الخير بحجة مخالفتهم للحق وبعضهم خالط الناس وسايرهم حتى في مخالفة الحق من المعاصي وقال إن ذلك مكر من الشيطان فقال : ((وقصّر – الشيطان – بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات كالجمعة والجماعات والجهاد

وتعلم العلم ، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام)) (إغاثة ، ج١ : ١٨٤) فمن خلال النصين الأخيرين يتضح للباحث معيار ابن القيم للتوافق الاجتماعي وأنه محكوم بميزان دقيق هو الموافقة أو المخالفة للحق وهو ما يطلق عليه الباحث حدود التوافق ، فالتوافق النفسي بين الإنسان ونفسه محدود ومحكوم بحكم الله ورسوله لا بالهوى والشهوة فهذا حدٌّ واضح في التوافق النفسي ويتمحور ذلك حول مفهوم الحلال والحرام في الإسلام وعن طريق ذلك يتعامل الإنسان معهما فما أحله الله استخدمه وما حرمه تركه ، وما أمر الله به عمله وما نهى عنه اجتنبه أما التوافق الاجتماعي فمبني عند ابن القيم على متابعة الحق وذلك بمشاركة الناس في الخير والطاعة . ولو كان أهلها قلة . وترك مخالفة الحق في المعاصي والآثام ولو كان أهلها هم الأكثرين .

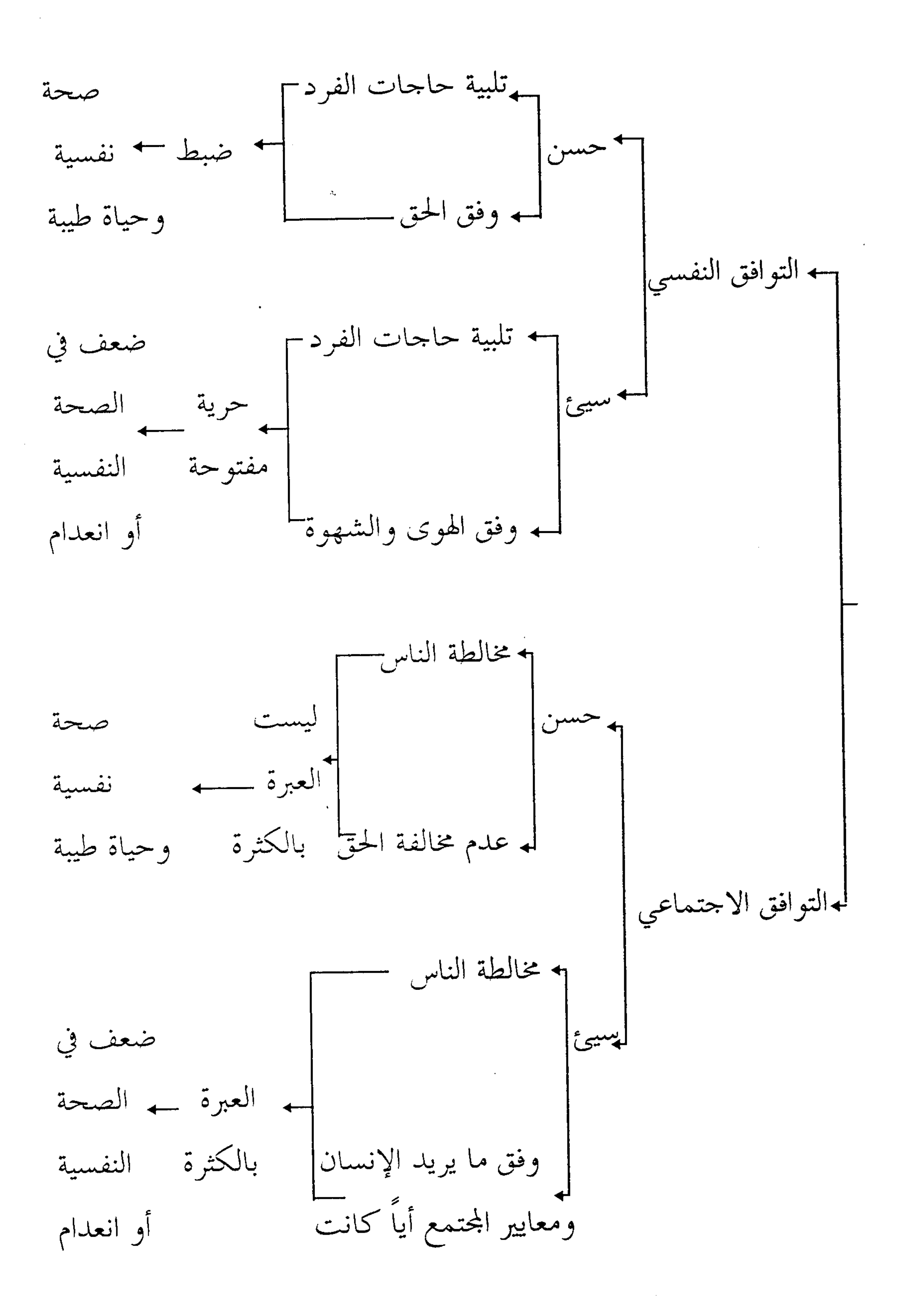
إن الدراسات النفسية الحديثة تكلمت كثيراً عن التوافق باعتباره دليلاً أكيداً للصحة النفسية والتوافق عندهم يدور حول ثلاثة مفاهيم أساسية (مرسي ، ١٤١٠هـ) : **التكيف** ، كما هو ظاهر في تعريف " القوصي " للتوافق و**التأثير** ، في تعريف " كلاندر " ، و**المسايرة** ، في تعريف " شوبن " وكل ذلك كما قالوا إشباع لحاجات الفرد وفق أهدافه وأهداف المجتمع . ولم يوضحوا حدوداً فاصلة للتوافق النفسي والاجتماعي بينما ابن القيم يرى أهمية التكيف لكنه المشروط والمحدود بالشرع ويحث على التأثير الإيجابي البناء بين أفراد المجتمع ولا يرى مسايرة المجتمع في كل شيء مطلقاً بل مسايرتهم بما كان خيراً ومخالفتهم إذا كان شراً ، ويتفق مرسي (١٤١٠هـ) مع ابن القيم في مفهوم التوافق الاجتماعي فيقول : ((وقد حث الإسلام على التوافق الحسن مع الجماعة وبين للمسلم الطريق إلى ذلك فأمره بالتعاون والتسامح والمودة وحسن الجوار والإصلاح بين الناس ، ونهى الإسلام عن التوافق السيء فأمره

باجتناب الحسد والتباغض وسوء الظن والخصومة)) وأكد أن المسايرة المطلقة للمجتمع لا تدل على الصحة النفسية أبداً واستطرد بقوله أيضاً : ((لم يجعل الإسلام توافق الإنسان مع نفسه ومجتمعه توافقاً قائماً على الخضوع الآلي بل جعل توافقه مسئولاً قائماً على بصيرة وإرادة الفرد الذي ألزمه بصلاح نفسه وصلاح الجماعة في ضوء شرع الله ، فإن تعذر عليه إصلاح الجماعة فعليه إصلاح نفسه والخروج على هذه الجماعة لأن التوافق مع فسادها ليس مطلباً للصحة النفسية ، ومعيار فساد الجماعة خروجها على شرع الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)) وأشار أيضاً إلى التوافق النفسي وحدوده فقال ((كما أن توافق الإنسان مع نفسه بحسب أهواءها وشهواتها يدل على تأخر نضوجه الاجتماعي والانفعالي وضعف صحته النفسية ، أما نهيها والسيطرة على شهواتها ومجاهدتها على الالتزام بشرع الله ففيه إعلاء لشأنها وتزكية لقدراتها وتنمية لصحتها النفسية)) (ص : ١٧) .

يتضح مما سبق أن الدراسات النفسية تتفق مع ابن القيم على إبراز أهمية التبادل والتعامل مع النفس والمجتمع وأثرهما في حياة الإنسان إلا أن ابن القيم جعل لهذا التعامل الداخلي أو الخارجي حدوداً لابد منها وحينئذ لا يلزم بالضرورة أن يدل التوافق على الصحة النفسية كما أن المخالفة لا تنفي الصحة النفسية عن صاحبها ويتفق مع وجهة نظر ابن القيم تلك كلٌ من مرسي (١٤١٠هـ) ، وعبد الخالق (١٩٩٣م) يقول مرسي : ((وعلى هذا فإن التوافق مع النفس والمجتمع ليس مرادفاً للصحة النفسية في كل الأحوال فقد يكون الإنسان متوافقاً مع المجتمع وغير متمتع بصحة نفسية ، وقد يكون سيئ التوافق مع مجتمعه ومتمتعاً بصحة نفسية ، فخضوع الفرد لمعايير منحرفة ؛ والتزامه بقواعد سلوك فاسدة ؛ ومجاراته لأعراف وتقاليد شاذة عن الجماعة ؛ لا يدل على الصحة النفسية ، والشذوذ عن الجماعة الفاسدة والانحراف عن

المعايير الخاطئة والخروج على العادات والتقاليد التي لا تتفق مع شرع الله من علامات النضوج والصحة النفسية)) (ص ١٥) كما أوضح عبد الخالق (١٩٩٣م) ذلك بقوله : ((قد يساير الفرد مجتمعه ولا يتمتع بالصحة النفسية ، كما قد يكون غير مساير لمجتمعه وغير متوافق معه ومتمتعاً بصحة نفسية جيدة ذلك أن الشذوذ عن معايير المجتمع إن كانت فاسدة ليس دليلاً على انتفاء الصحة النفسية بل إن مسايرة المعايير الشائعة إن كانت منحرفة لهو دليل على انتفاء الصحة النفسية)) (ص : ٦٥) .

ولعل الباحث بعد ذلك يبين مفهوم ابن القيم حول التوافق من خلال الشكل التالي :-



مفهوم التوافق عند ابن القيم رحمه ا لله

د– عوائق التوافق :–

ذكر ابن القيم ثلاثة أنواع من العقبات التي توهن استقامة الإنسان وصحته وتقلل سعادته أو تزيلها وذلك لأنها تعارض أو تثقل موافقة الحق وتبعد طالب السعادة الحقيقية عن طريقها الحقيقي وهن : " العوائد " وَ " العوائق " وَ " العلائق " ويبين ابن القيم أنه من المهم معرفة ذلك وقد عرَّف حقيقة هذه الأنواع وأثرها وأهمية تركها

النوع الأول: " العوائد " قال فيها : ((العوائد : السكون إلى الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع بل هي عندهم أعظم من الشرك فإنهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها مالا ينكرون على من خالف صريح الشرع)) (المرجع السابق : ٢٢٣) . وهذا عائق اجتماعي يعيق الإنسان عن حياته الطيبة وهي رسوم وطرق تَوَاضَعَ عليها وعمل بها الناس فيسلكها الإنسان محتجاً بعمل الناس لها فتقطعه عن موافقة الحق مما يقوي التوافق السيء ويزيل التوافق الحسن .

النوع الثاني : " العوائق " وقال فيها : ((وأما العوائق : فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها ، فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه وهي ثلاثة أمور : شرك وبدعة ومعصية فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد ، وعائق البدعة بتحقيق السنة ، وعائق المعصية بتحقيق التوبة ، وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ في أهبة السفر ويتحقق بالسير إلى الله والدار الآخرة فحينئذٍ تظهر له هذه العوائق ويحس بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر ، وإلا فما دام قاعداً لا يظهر له كوامنها وقواطعها))
(المرجع السابق : ٢٢٣)

إن العوائق مرتبطة بأعمال الفرد أكثر من ارتباطها بالجانب الاجتماعي وهي تحمل الأوصاف الثلاثة إما شرك أو بدعة أو معصية التي تعيق الإنسان عن موافقة الحق ومن ثم تبعده عن الحياة السعيدة المطمئنة . وذكر ابن القيم نقطة مهمة ؛ وهي أن العوائق لا تظهر إلا لأصحاب العمل والجد والنشاط وأما الكسول فإنها تخفى عليه ولا يحس بها .

النوع الثالث : " العلائق " وقال فيها : ((وأما العلائق ، فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياساتها وصحبة الناس والتعلق بهم ، ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى)) (المرجع السابق : ٢٢٣) . وقد فرق ابن القيم بين النوعين الأخيرين فقال : ((والفرق بينهما - العوائق والعلائق - أن العوائق هي الحوادث الخارجية والعلائق هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها)) (المرجع السابق : ٢١٢) والعلائق نوع من العائق النفسي الداخلي وذلك استجابة لهوى النفس وشهوتها . والعوائق عند ابن القيم تأخذ مسارات ثلاث فالأول له اتصال بالجانب الاجتماعي ، والثاني له اتصال بسلوك الإنسان " الخارجي " ، والثالث له اتصال بالجانب النفسي " القلبي " والدراسات النفسية اتفقت مع ابن القيم حول عائقين وهما : النفسي والاجتماعي وزاد عليهم بالعائق السلوكي (الشرك البدعة ، المعصية) وهم اختلفوا عنه بزيادة عائقين وهي العوائق الجسمية ، والعوائق المادية الاقتصادية .

وتفسير الدراسات النفسية للعائق الاجتماعي يكاد يتفق مع تفسير ابن القيم للعائق الاجتماعي يقول محمد ، ومرسي (١٩٨٦م) : ((٤- العوائق الاجتماعية ، ويقصد بها القيود التي يفرضها المجتمع في عاداته وتقاليده وقوانينه لضبط السلوك وتعوق الشخص عن بعض أهدافه)) (ص : ١٢٤) إلا أن فيه اختلافاً بينهم وبين ابن القيم حيث يفسرون العوائق النفسية بنقص الذكاء أو

ضعف القدرات والمهارات أو خلل في الشخصية بينما هو عند ابن القيم تعلق القلب بغير الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها . وهذا يُظهر لنا أن تفسير ابن القيم للعوائق في أغلبه جانب إيماني مرتبط بموافقة الحق وأن العائق حقيقة هو كل ما يقطع عن الله ورسوله ﷺ سواء كان من خارج الإنسان " مجتمعه " أو في سلوكه أو مستقراً في قلبه ونفسه فكلها عوائق تؤخر أو تزيل السعادة والصحة .

السواء والاضطراب

إن مناقشة السواء والاضطراب يماثل مناقشة مفهوم الصحة النفسية وسماتها ومرتكزاتها إذ إن الصحة النفسية هي السواء وضعف الصحة يؤدي إلى الاضطراب أو السلبية أو المرض إلا أن الباحث سوف يبرز هنا المفهوم الدقيق للسواء والاضطراب من وجهة نظر ابن القيم مع إبراز المعيار الذي استند إليه ابن القيم لتحديد السواء والاضطراب :

أ- مفهوم السواء :-

إن مفهوم السواء عند ابن القيم مرتبط أيما ارتباط بالهدف العظيم من إيجاد الإنسان في هذه الحياة وهو عبودية الله المتمثلة في أداء أوامر الله والإنتهاء عن نواهيه فإن فعل الإنسان ذلك حقق السواء النفسي و " النفس المطمئنة " أو " القلب السليم " يقول في ذلك ((فالنفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره وأنابت إليه واشتاقت إلى لقائه ، وأنست بقربه فهي مطمئنة))
(إغاثة ، ج١ : ١٢٦)

ويقول عن القلب السليم : ((والقلب السليم الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، فالقلب السليم هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه من الوجوه بل قد خلصت عبوديته لله إرادة ومحبة وتوكلاً وإنابة وإخباتاً وخشية ورجاءاً ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله ﷺ))
(المرجع السابق ، ج١ : ١٢)

وعلامات السواء التي نستدل منها على سوية الإنسان هي سمات الصحة النفسية التي ذكرها الباحث تحت مفهوم الصحة النفسية وهي :

١- العبودية لله تعالى .
٢- التوازن والوسطية .
٣- البركة .
٤- الذكر .

٥- الصدق .

٦- الطمأنينة .

٧- الرضا .

٨- الأدب .

٩- التعاون والتكميل .

١٠- التفاؤل .

١١- الرغبة في الآخرة .

إن ابن القيم جعل الأصل في السواء معرفة النفس ومعرفة ا لله سبحانه وعبوديته وفي ذلك يقول : ((فكلما جدد ا لله للإنسان نعمة ازداد له ذلاً وانكساراً وخشوعاً ومحبة وخوفاً ورجاءً وهذا نتيجة علمين شريفين : علمه بربه وكماله وبره وغناه وجوده وإحسانه ورحمته وإن الخير كله في يديه ، وعلمه بنفسه ووقوفه على حدها وقدرها ونقصها وظلمها وجهلها ومن فاته التحقق بهذين العلمين تلونت به أقواله وأعماله وأحواله وتخبطت عليه و لم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصل إلى ا لله)) (الفوائد ، ص : ٢٠٢)

وطريق الوصول إلى السواء هو عن طريق مرتكزات تحقيق الصحة النفسية الذي يسميه ابن القيم " الكمال الإنساني " وهو السواء النفسي ويرى الباحث اختصارها إلى ستة عوامل أساسية وهي :-

١- معرفة ا لله وطاعته .

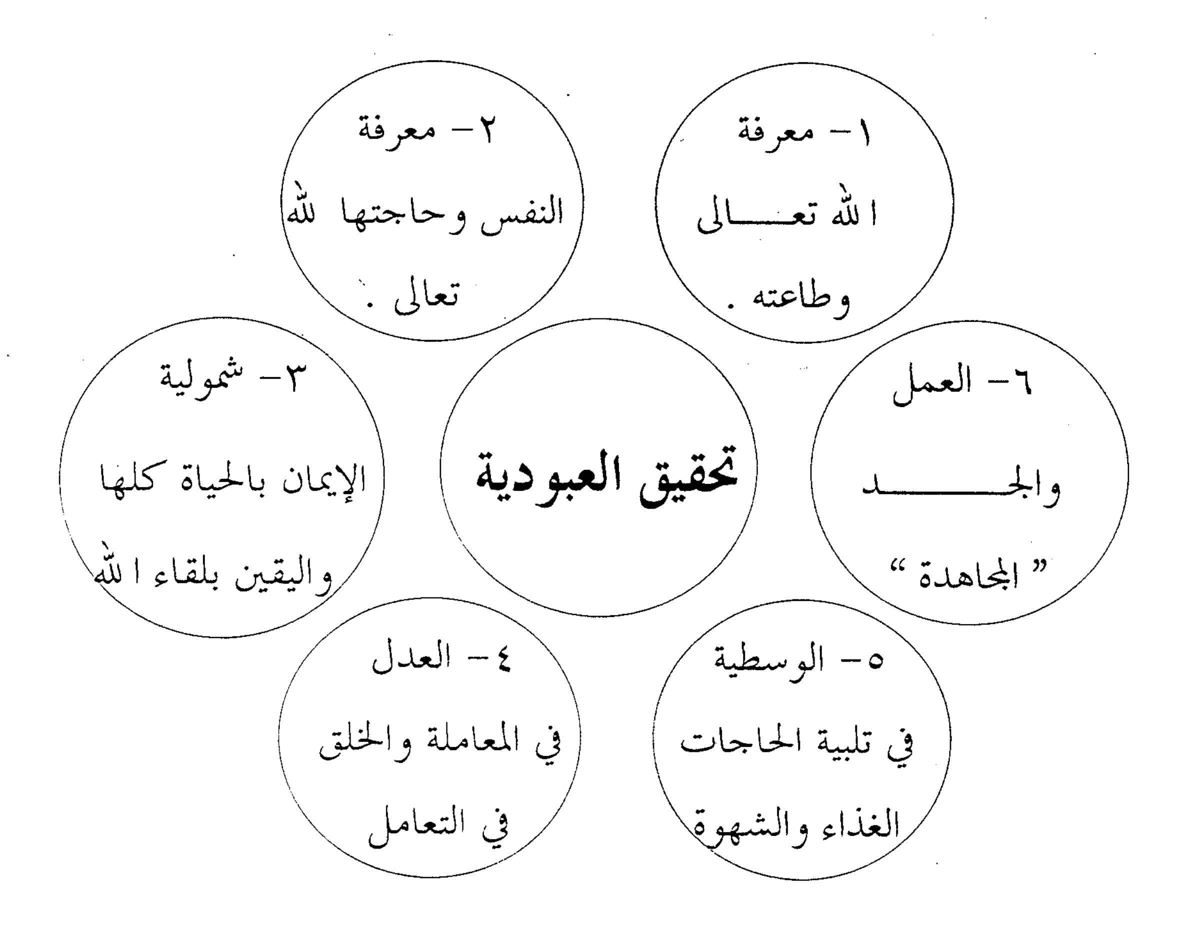
٢- معرفة النفس وحاجتها لله تعالى .

٣- شمولية الإيمان بالحياة كلها و اليقين بلقاء ا لله .

٤- العدل في المعاملة والخلق في التعامل .

٥- الوسطية في تلبية الحاجات الغذاء والشهوة .

٦- العمل والجد ((المجاهدة)) ويجمعها الشكل التالي :-



مفهوم السواء النفسي عند ابن القيم رحمه الله

من خلال ما سبق يتبين أن مفهوم السواء عند ابن القيم مرتبط بنظرته للإنسان من ناحية خلقه وطبيعته " الفطرة " وهدفه وغايته " الآخرة " مما جعل السواء يرتبط بالعبودية لله تعالى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني – وجوداً وعدماً – فبقدر ما يحقق الإنسان العبودية المتضمنة لهذه العوامل الستة بقدر ما يحقق السواء وبقدر ما تضعف عبوديته لله تعالى بقدر ما يضعف السواء ويميل إلى الاضطراب ويتفق الشناوي (١٤١٤هـ) مع ابن القيم في جعله النفس المطمئنة تمثل السواء فقال : ((وحالة السواء أو الصحة التي يصل إليها هي النفوس المطمئنة القائمة على الإيمان والإستقامة)) (ص ٤٧٧)

ويرى أن ذلك تحقيق وتلبية لحاجة الروح التي تمثل قمة الحاجات ألا وهي تحقيق العبودية ويستطرد الشناوي بقوله : ((ولذلك نرى أن الإسلام انطلق من حاجة عليا هي أم الحاجات وهي الحاجة الملائمة للإنسان المخلوق الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه ، وهذه الحاجة هي غاية الغايات بل هي الغاية الوحيدة لحياته ، عبادة الله وحده)) (ص ٤٧٧) .

إن نظرة ابن القيم للسواء مرتبطة كما قال الباحث بنظرته لطبيعة الإنسان وهدفه وغايته في الحياة وهذا ما خلص إليه النغيمشي (١٤١٥هـ) إذ يقول ((ومفهوم السواء في المنهج الإسلامي مرتبط أيما ارتباط بالكيفية التي ينظر بها الإنسان من حيث طبعه ومنهجه وغاياته)) (ص ٣٥٩) .

إذاً مفهوم السواء عند ابن القيم يتمحور حول تحقيق العبودية التي هي فعل أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه وهذا المفهوم يقترب كثيراً مع المعيار القيمي المثالي في الدراسات النفسية الحديثة وهذه القيم والمثل ليست من نتاج أوصنع البشر بل من الله تعالى مما يعطيها قيمة عالية وشمولاً لجميع جوانب الإنسان النفسية والتربوية والاجتماعية والإيمانية وسيزيد الباحث هذه القضية أيضاً في ذكره لمعيار ابن القيم " الشرعي " .

ب- مفهوم الاضطراب :-

إن مفهوم الاضطراب عند ابن القيم يمثله " المرض " وخاصة مرض القلب وهذا بدايته ، ونهايته موت القلب وقاس ذلك على مرض البدن لتقريب مفهوم الاضطراب أو المرض فيقول : ((ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي لفساد يعرض له يفسد به إدراكه كلياً كالعمى والصمم والشلل أو يدرك الأشياء بخلاف ما هي عليه كإدراك الحلو مراً أو يفسد حركته الطبيعية مثل : أن يضعف قوته الهاضمة أو الماسكة

أو الدافعة أو الجاذبة فيحصل من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، فكذلك مرض القلب ، ومرضه هو نوع فساد يحصل له ، يفسد به تصوره للحق وإرادته له ، فلا يرى الحق حقاً أو يراه على خلاف ما هو عليه أو ينقص إدراكه ، وتفسد به إرادته له ، فيبغض الحق النافع أو يحب الباطل الضار أو يجتمعان له وهو الغالب)) (إغاثة ، ج١: ٢٥) ويرى ابن القيم خطورة كلا المرضين البدني والقلبي " النفسي " إلا أنه يؤكد على أهمية التركيز على إصلاح المرض القلبي فيقول : ((وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جداً)) (الطب : ١١٦) .

ومفهوم " الاضطراب " القلبي عنده هو ((القلب الميت الذي لا حياة فيه فهو لا يعرف ربه ولا بصيرة له بأمره وما يحبه ويرضاه بل واقف مع شهواته ولذاذاته ، وكذلك القلب المريض هو قلب له حياة وبه علة فله مادتان يمده هذا مرة وهذا أخرى وهو لما غلب منهما)) (إغاثة ، ج١ : ١٣) والاضطراب عند ابن القيم يشمل الأفكار والتصورات والحركة والسلوكيات ويوضح ذلك أكثر قوله : ((والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات ، فتن الغي والضلال ، وفتن المعاصي والبدع ، فتن الظلم والجهل ، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد)) (إغاثة ج١ : ١٧) ويمثل الشرك قمة الاضطراب .

إذاً هناك جانبان :

الجانب الأول : السواء النفسي (الجانب الإيجابي للصحة النفسية التي ينبغي تدعيمها وتقويتها) .

الجانب الثاني : الاضطراب النفسي (الجانب السلبي للصحة النفسية التي ينبغي التخلص منها من خلال التعليم والتوجيه والإرشاد) .

وربط ابن القيم الاضطراب والمرض القلبي " النفسي " بعدم تحقيق عبودية الله المتضمن لمعاكسة العوامل الستة المحققة للسواء وهي :-

١- الجهل با لله .

٢- الجهل بالنفس .

٣- عدم الإيمان بالآخرة " عبودية الدنيا " .

٤- الظلم في المعاملة وسوء الخلق في التعامل .

٥- الإفراط في تلبية الحاجات الغذاء والشهوة .

٦- العجز والكسل " ضعف الثقة " .

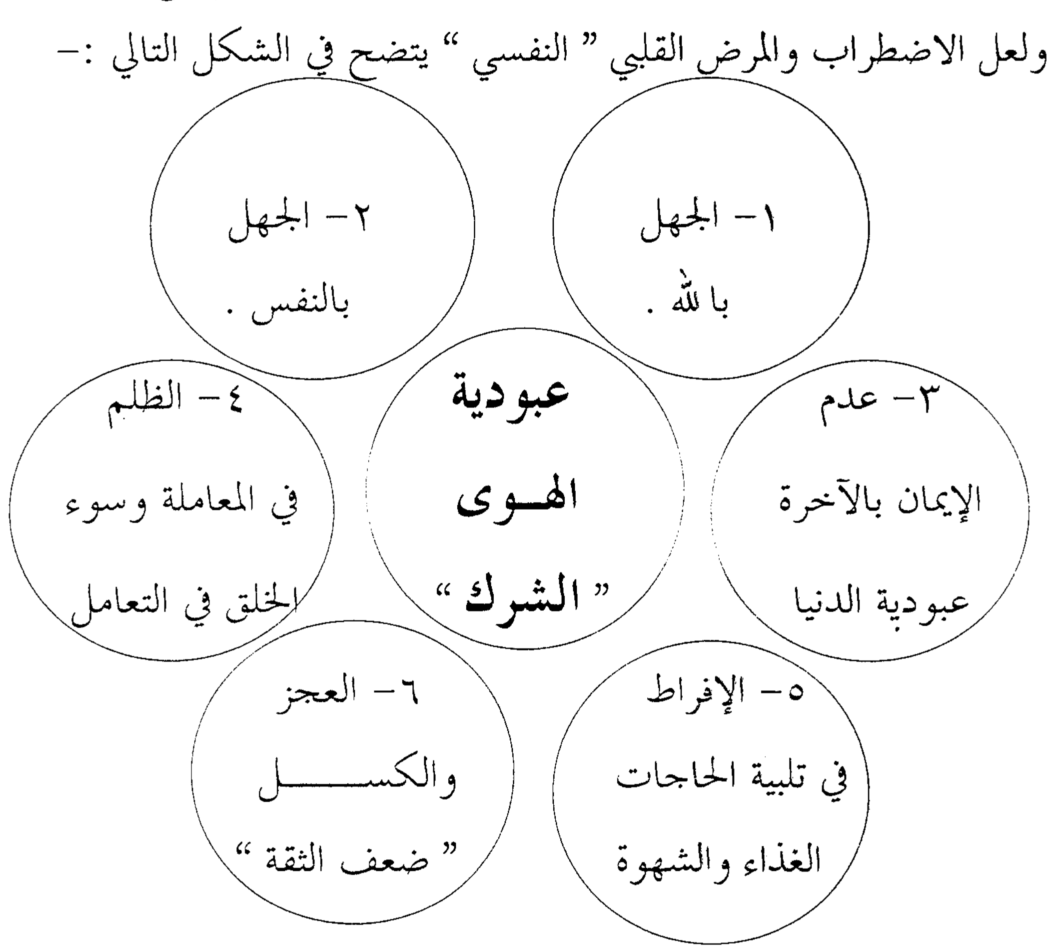
ويجمع هذه العوامل المسببة للاضطراب مسمى " الذنوب " بجميع صورها سواءً كانت ذنوباً بحق الله أو النفس أو المجتمع يقول في الذنوب : ((والذنوب للقلب بمنزلة السموم ، إن لم تكن تهلكه أضعفته ولابد ، وإذا أضعفت قوته لم يقدر على مقاومة الأمراض)) (الطب : ٣٥٣) .

وأشار إلى أن الذنوب سواء صغُرت أم كبُرت لها أثرٌ في إنشاء المرض والاضطراب يقول : ((فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولاشك أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر وهل في الدنيا والآخرة شرور وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي)) (الجواب : ٨٠) ويرجع ابن القيم سبب الاضطراب " المرض " إلى إهمال الخواطر والأفكار المبدئية فإنها منشأ المرض كما أنها منشأ الصحة وفي ذلك يقول : ((مبدأ كل علم نظري ، وعمل اختياري ، هو الخواطر والأفكار ، فإنها توجب التصورات ، والتصورات تدعو إلى الإرادات ، والإرادات تقتضي وقوع الفعل ، وكثرة تكراره تعطي العادة ، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار ، وفسادها بفسادها)) (الفوائد : ٢٤٩) وقال في موضع آخر : ((وأما الخطرات فشأنها أصعب ، فإنها مبدأ الخير

والشر ، ومنها تولد الإرادات والهمم والعزائم فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ومن استهان بالخطرات قادته قهراً إلى الهلكات))

(المرجع السابق ، ٢٢٢)

ولعل الاضطراب والمرض القلبي " النفسي " يتضح في الشكل التالي :-



مفهوم الاضطراب " المرض " النفسي عند ابن القيم رحمه الله

وهذه العوامل تقوم على الأسباب الأساسية الآتية :

إهمال الخواطر والأفكار ← فتن الشبهات والشهوات ← الذنوب والمعاصي ← القلق والحيرة والمرض والاضطراب

فالشكل العلوي يمثل العمليات تفصيلاً والشكل السفلي يمثل الخطوات عموماً فمن اهتم بملاحظة الخطوات العامة قاده ذلك للاهتمام بمعرفة العوامل

المسببة للاضطراب ومن ثم اجتنابها ، ومن أهمل الخطوات العامة أو جهلها فسوف يسلك يقيناً طريق الاضطراب من خلال العوامل .

إذاً مفهوم الاضطراب والمرض عند ابن القيم يحصل نتيجة عبودية الهوى والنفس وعدم وجود التوازن بين حاجات البدن والروح وهنا يبرز إدخال الجانب الروحي " خَلْقاً ، ومصدراً ، وغاية " من قبل ابن القيم وأن له أثراً في إحداث السواء والاضطراب وهذا الجانب قد غفلت عنه كثير من الدراسات النفسية الحديثة يقول الشناوي (١٤١٤هـ) : ((لا يوجد من بين النظريات الغربية للإرشاد والعلاج النفسي ما يشير إلى أهمية الجانب الروحي وأهمية الدين في تطور شخصية الإنسان أو في تفسير اضطراب السلوك)) (ص ٤٨٠)

وأكد الشناوي النتيجة التي خلُص إليها الباحث في مفهوم الاضطراب عند ابن القيم وربط ذلك بالقيم والدين فيقول : ((إن سلوك الإنسان لا يضطرب بوجود القيم والأخلاق كما يدعي البعض وإنما يضطرب عندما يبتعد عن القيم والأخلاق وذلك لأن المنهج الإسلامي هو المنهج الشامل فإن الزيغ عن الغاية والانحراف عن الوظيفة هو لب الاضطراب ومرجعهما إلى البعد عن الدين وتعاليمه)) (ص ٤٨١) وأشار إلى أهمية التوازن الفعال في السواء والاضطراب وجوداً وعدماً فقال : ((فإن الانحراف عن الطريق الذي رسمه الإسلام لإشباع الدوافع والحاجات -وهو تحقيق عبودية الله والإشباع وفق شريعته بقصد واعتدال - يعتبر من أهم أسباب الاضطراب النفسي))
(ص ٣٩٦)

ويتفق كذلك النغيمشي (١٤١٥هـ) مع الشناوي وابن القيم في ذلك فيقول ((إن الإنسان السوي هو الذي يلبي نداءات الروح والجسد على حد سواء وأن الشذوذ والانحراف يمكن أن يوجدا عند إشباع الروح على حساب الجسد أو العكس ويجري على هذا المنوال التوازن بين العبادات والماديات في

حياة الفرد وبين الآخرة والدنيا)) (ص ٣٦٤) وهناك قضية يرى الباحث أهمية ذكرها وهي هل السواء ثابت وكذلك المرض والاضطراب عند من يصل إليه ؟ أو أنه يتغير ويزداد وينقص ؟ وقد سبق أن أشار إليها الباحث تحت مسمى " نسبية الصحة النفسية " فابن القيم يرى أن الإنسان السوي لا يستمر على سوائه لا يزداد ولا ينقص أبداً بل إنه يصيبه هذا وذاك في اليوم بل في الساعة الواحدة وفي ذلك يقول : ((والنفس قد تكون أمارة ، وتارة لوامة وتارة مطمئنة ، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا وهذا والحكم للغالب عليها من أحوالها)) (إغاثة ، ج١ : ١٢٩)

وفي قول ابن القيم الحكم للغالب عليها يدل على أن السواء المطلق عزيز وإنما يطلق على الإنسان صحيحاً وذا نفس مطمئنة إذا غلب عليه ذلك وإن كان فيه ضعف أو مرض لكنه عارض وغير متأصل وهذه نظرة واقعية للحكم على الإنسان بالسواء والاضطراب لأن الكمال المطلق لله سبحانه وتعالى .

وبعد هذا العرض لمفهومي السواء والاضطراب عند ابن القيم يتبين للباحث معيار ابن القيم في الحكم على السلوك أو الشخص بأنه سوي أو مريض مضطرب بأنه " معيار شرعي " المأخوذ من الكتاب والسنة المستند إلى العقل الصحيح والتجربة الصادقة المتصف بالتوازن في تلبية حاجات البدن والروح المؤمن بحياتين الدنيا والآخرة . ولعل أقرب معايير الدراسات النفسية لهذا المعيار مع بعدها كلها وهو " المعيار القيمي المثالي " ولكن بينهما اختلاف من ناحيتين :-

أولاً : أن المعيار القيمي يفترض الكمال المطلق ولذا رفضه معظم علماء النفس بينما المعيار الشرعي يتميز بالواقعية . نعم وضع للإنسان أهدافاً عليا ومراتب سامية وحفزه لبلوغها لكن مع ذلك فإنه يعرف طبع هذا الإنسان

وضعفه وعجزه ولذا فلم يطلب منه عدم الخطأ ألبته بل إذا أخطأ أو انحرف عن هذا المعيار أن يرجع ويتوب بسرعة حتى يزول اضطرابه .

ثانياً : أن المعيار القيمي مصدره من البشر ولذا هم يهتمون كثيراً بأن يدخل أكبر عدد ممكن تحته فإن لم يكن كذلك رفضوه أو أهملوه ... بينما المعيار الشرعي يتميز بأن مشرعه هو الله عز وجل الذي يعلم خلقه ومصادر قوتهم وضعفهم . وقد أوضح هذا المعيار بالوحيين الكتاب والسنة فمن أخذ به أصبح سوياً وإلا اضطرب وليست العبرة بكثرة من أخذه أو تركه بل العبرة بسلوك الجادة الصحيحة . وسيزيد الباحث هذه القضية في الفقرة اللاحقة إيضاحاً وبياناً .

ج- معيار ابن القيم :

ناقش ابن القيم قضية المعيار الذي يحدد أن هذا حسن وهذا قبيح وهذا سواء وهذا اضطراب وهذا طيب وهذا خبيث وهذا جيد وهذا رديء ، وذكر أن تحديد ذلك إذا كان مرجعه إلى البشر وأذواقهم فإنه لا ينضبط وبذلك لن يصلوا لمعيار صادق وفي ذلك يقول في ذكر قواعده المهمة للإيمان والسلوك : القاعدة الأولى : أن الذوق والحال والوجد هل هو حاكم أو محكوم عليه ، فيُحْكَمُ عليه بحاكم آخر ، ويتحاكم إليه ؟ فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة حيث جعلوه حاكماً . فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع وفيما هو صحيح وفاسد وجعلوه محكاً للحق والباطل ثم إنه وقع من تحكيم الذوق من الفساد ما لا يعلمه إلا الله فإن الأذواق مختلفة في أنفسها كثيرة الألوان ، متباينة أعظم التباين)) (مدارج ، ج١ : ٤٩٣) .

وقد أطلق ابن القيم على هذا المعيار " الفرق الطبيعي " أو المعيار الطبيعي فيقول : ((فأما " الفرق " الطبيعي الحيواني : فهو التفريق بمجرد الطبع أو

الميل ، فيفرق ما يفعله ومالا يفعله بطبعه وهواه وهذا فرق الحيوانات وأشباهها من بني آدم فالمعيار ميل طبعه ، ونفرة طبعه))

وأكد ابن القيم أن المعيار للسلوكيات والعقائد والأقوال هل هي صحيحة سوية أو فاسدة مضطربة ، يؤخذ من الكتاب والسنة وفي ذلك يقول : القاعدة الثانية : أنه إذا وقع النزاع في حكم فعل من الأفعال ، أو حال من الأحوال ، أو ذوق من الأذواق . هل هو صحيح أو فاسد ؟ وحق وباطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين وهي وحيه الذي تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه ، وتعرض عليه وتوزن به فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول ، وما أبطله ورده فهو الباطل المردود ، ومن لم يبنِ على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله فليس على شيء من الدين وإنما معه خدع وغرور)) (المرجع السابق ، ج١ : ٤٩٣) .

وقد أطلق ابن القيم على هذا المعيار مسمى المعيار الإسلامي أو الفرق الإسلامي فقال : ((وأما " الفرق " الإسلامي : فهو الفرق بين ما شرعه الله وأمر به وأحبه ورضيه وبين مانهى عنه وكرهه ومقت فاعله ، وهذا الفرق من لم يكن من أهله لم يشم رائحة الإسلام ألبتة)) (مدارج ، ج٣ : ٤٦٩)

من خلال هذه النصوص يتبين للباحث أن معيار ابن القيم للحكم على السلوكيات والقلبيات بأن هذا سوي وهذا مضطرب يطلق عليه " المعيار الشرعي " " الإسلامي " الذي يستند إلى الوحي . وهل هناك محكات تؤكد ما أكده المعيار الشرعي بأن هذا سوي وهذا مضطرب عند ابن القيم ؟ نعم لقد أشار ابن القيم بأن الشريعة أتت لتؤكد ما استقر في الفطر وأقرته العقول الصحيحة وأهّل الإنسان للسعادة الأخروية ولذا فهناك ثلاث محكات تبارك ما حكمت به الشريعة ، الفطرة السليمة ، العقل ، الغاية من هذه الحياة . فإن خالفها أصبح شاذاً ومضطرباً .

أولاً : الفطرة السليمة :

أبان ابن القيم أن الإنسان مفطور على محبة الخير وخصاله وكراهية الشر وخصاله وأن هذا مركوز في الفطر والشريعة أتت لبيان ذلك وتفصيله ، وأشار إلى ذلك بقوله : ((لا ريب أن التدين بالشرائع يقتضي الاستحسان والاستقباح ولكن الشرائع إنما جاءت بتكميل الفطر وتقريرها لا بتحويلها وتغييرها . فما كان في الفطرة مستحسناً جاءت الشريعة باستحسانه فكسته حسناً إلى حسنه فصار حسناً من الجهتين ، وما كان في الفطرة مستقبحاً جاءت الشريعة باستقباحه فكسته قبحاً إلى قبحه فصار قبيحاً من الجهتين))
(مفتاح ، ج٢ : ٦٦)

وقد اتفق النغيمشي (١٤١٥هـ) مع ابن القيم في ذلك فقال : ((فالإنسان مفطور مطبوع على أشياء كثيرة ، خلق بها وبني عليها ، فهي من جبلته ، مألوفة لديه ، محبوبة عنده ، نابعة من كيانه وكلما وافق الإنسان فطرته وطبعه كان مستقراً مطمئناً ، وكلما صادمها أو خرج عليها صار مضطرباً متردداً فالإنسان مفطور على حب الحياة والتعلق بها فهو يخاف من الهلاك ويتشبث بالحياة كما أن التفريط بالنفس والأداء بها إلى التهلكة وظاهرة الانتحار تعد سلوكيات شاذة تدل على انحراف من يفعلها وهكذا كل ما هو من الفطرة والطبع السليم فهو مقبول مُرحَّبٌ به في المنهج الإسلامي لأنه أحد معاييره المهمة التي تقاس بها الشخصية سواءً وشذوذاً ولأن الشرع يوافق الفطرة ولا يناقضها)) (ص ٣٦٠) .

ثانياً : العقل :

أكد ابن القيم كثيراً على أن العقل الصحيح السليم موافق للنقل الصريح والوحي الإلهي إذ الذي خلق العقل هو الله ومنزل الشريعة هو الله فلا يمكن أن ينزل شريعة يخالفه عقل المُنَزلِ عليه ولذا فالعقل شاهد لمعيار الشرع

ومؤكد له وجعل عليه مناط التكليف ورفعه يقول في ذلك : ((إن الحسن والقبح صفات ثبوتية للأفعال معلومة بالعقل والشرع وأن الشرع جاء بتقرير ما هو مستقر في الفطر والعقول من تحسين الحسن والأمر به ، وتقبيح القبيح والنهي عنه وأنه لم يجئ بما يخاف العقل والفطرة)) (مفتاح ، ج٢ : ٥٩) وهكذا فالعقل الصحيح يتفق مع الشرع بالشهادة على الشيء أنه حسن أو غير حسن فيبارك العقلُ الشرعَ ولا يخالفه ولذا فالعقل يعتبر محكاً مهماً للتمييز و إصدار الأحكام على الأشياء بالحسن والقبح إلا أنه لا يستقل بنفسه لعمل كل شيء بدون رجوع للشرع . ولذا تكلم ابن القيم عن الذين يعتمدون فقط على عقولهم القاصرة فقال : ((لكن العقول الحرونة لما كانت قاصرة عن اكتساب المعقولات بأسرها عاجزة عن الاهتداء إلى المصلحة الكلية الشاملة لنوع الإنسان وجب من حيث الحكمة أن يكون بين الناس شرع يفرضه شارع يحملهم على الإيمان بالغيب جملة ويهديهم إلى مصالح معاشهم ومعادهم تفصيلاً فيكون قد جمع لهم بين حظي العلم والعدل على مقتضى العقل وحملهم على التوجه إلى الخير المحض والإعراض عن الشر المحض إستيفاءً لنوعهم واستدامةً لنظام العالم)) (المرجع السابق ، ج٢ : ٥٦) .

ثالثاً : الغاية من هذه الحياة " الهدف الأخروي " :

إن الأعمال والسلوكيات التي تسعى لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة خاصة فإن ذلك يمثل السواء ، والسلوكيات التي تخالف هذه الغاية تعتبر شذوذاً واضطراباً ، فمثلاً الأمانة هي جزء من مفهوم العبادة في الدنيا وهي أمر مطلوب لبناء السعادة الأخروية وهذا هو السواء ، والخيانة بجميع صورها تغيرٌ اضطراريٌ يؤثر في حياة الإنسان حالياً سلباً ويحطم السعادة الأخروية ولذا يعتبر شذوذاً يقول النغيمشي (١٤١٥هـ) في ذلك : ((ليكون السلوك الإنساني في غاية سوائه لابد أن يكون منسجماً مع غايته النهائية التي يلزم أن

يحددها له خالقه وهي العبودية)) (ص ٣٦٣) وابن القيم أشار إلى ذلك بأن دين الله وعبادته هي كمال سعادة الإنسان والحسن ظاهر في ذلك ولكن لايرى ذلك من أعشى الله أبصارهم يقول : ((وأما أمره وشرعه ودينه فكمال غاية وسعادة في المعاش والمعاد ولا ريب أن وجه الحسن فيه أعظم من وجه الحسن في الأمور الحسية وإن كان الحس هو الغالب على الناس وإنما غاية أكثرهم إدراك الحسن والمنفعة في الحسيات وتقديمها وإيثارها على مدارك العقول والبصائر قال تعالى :

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

(سورة الروم ، آية ٦ ، ٧))) (مفتاح ج٢ : ٨٣)

يقول النغيمشي (١٤١٥هـ) : ((ولا شك أن هذا المعيار يعد من أدق المعايير السلوكية ، ومن أفضل المحكات في بناء الشخصية وتقويمها ، وقياس سوائها وشذوذها ، فوفق المنهج الإسلامي لا نسوي شخصية المعاند المفرط الطاغي بشخصية المطيع المنقاد المتواضع ولا شخصية التائه المسرف العربيد بشخصية العارف الحازم الملتزم)) (ص : ٣٦٣) .

وبعد ذلك يتضح للباحث معيار ابن القيم للحكم على السلوكيات والقلبيات والسواء والاضطراب بأنه شرعي إسلامي ويتوافق مع ذلك الفطرة والعقل والغاية من الخلق والهدف الأخروي وأكد كثيراً على أن الإنسان لا يستقل بنفسه أبداً للحكم دون الرجوع لمصدر إلهي ؛ إذ البشر يتفاوتون في أذواقهم وآرائهم فضلاً عن اتجاهاتهم كما أن أكثرهم يجهلون ما يصلحهم حقيقة وما يضرهم فعـ ؛ وكذلك أسقطوا أهمية الأحكام الشرعية والقيم الأخلاقية ودورها في الحكم على الأشياء ويتفق مع ابن القيم في ذلك الشهيد (١٣٩٩هـ) ، ومحمد ومرسي (١٤٠٦هـ) ، النعيمشي (١٤١٥هـ) يقول (الشهيد ، ١٣٩٩هـ) : ((وليس ثمة شخص عاقل يستطيع أن ينكر

حقيقة أن جميع الناس يرتبطون بالحضارة التي نشأوا بها ومن ثم فإنهم يستطيعون تفسير الحقيقة فقط من وجهة نظر محدودة ، إن جميع الناس يرتبطون بالزمان والمكان ولذلك فإن لديهم رؤية إدراكية محدودة ومقدرة تقييمية ناقصة ، ولذلك يؤكد الإسلام طبقاً لما نعرفه عن قصور الإنسان الإدراكي والتقييمي أن الله في حكمته المطلقة وقدرته الكلية هو الكيان الوحيد القادر على تفسير الحقيقة بطريقة مطلقة وتامة ، وتبعاً لذلك يصر الإسلام على أن الإنسان غير قادر على تكوين دين موضوعي ونظام من القيم مصاحب له يكون متحرراً من ميوله واهتماماته الشخصية وتأثره بالحضارة ومن ثم فإن إجابة المسلم المؤكدة على السؤال الشائع : من ذا الذي يقرر ما هو الشيء النافع وغير النافع ، والصواب و الخطأ ، والأخلاقي ، والآثم ؟ سوف يقول : " الله " ولا أحد غير الله)) (ص ١٩)

ويقول مرسي (١٤٠٦هـ) : ((ومن وجهة نظرنا في الصحة النفسية نحكم على توافق الشخص بالحسن أو السواء أي (السواء وعدم السواء) في ضوء شريعتنا الإسلامية بحسب الأهداف التي حققها وأساليبه في تحققيها فنعتبر توافقه حسناً إذا كانت أهدافه مشروعة وحققها من حلال بأساليب مقبولة اجتماعياً ودينياً)) (ص ١٦٨)

ويؤكد ذلك النغميشي (١٤١٥ هـ) قائلاً : ((وبمعيار الشرع يحصل الإنسان على قانون مفصل لكيفية السير في حياته فلا يحار ولاتلتبس عليه الأمور فيما يأتي أو يدع ، وبالشرع يتعرف الإنسان على مدى بعده أو قربه من السواء ، أي أنه يستطيع أن يُقوِّم نفسه ومجتمعه ثم يُعدِّل في ذلك ليصل إلى درجة عالية من الصحة النفسية والنضج والاستواء في شخصيته)) (ص ٣٦٢)

وهذا المعيار الشرعي عند ابن القيم ليس خيالياً أو مثالياً لا يوصل إليه بل حققه الرسل وأكدوه وبينوه ، يقول ابن القيم : ((وجاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطر وتكميله وتفضيله وزيادته حسناً إلى حسنه فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا وتوافقا وظهر أنهما من مشكاة واحدة فعبدوه وأحبوه ومجدوه وحمدوه بداعي الفطرة وداعي الشرع وداعي العقل فاجتمعت لهم الدواعي)) (مفتاح ، ج٢ : ٨٨)

ويقول في ذلك نجاتي (١٤٠٩هـ) : ((ولقد تحققت الشخصية السوية في أكمل صورها في شخصية الرسول ﷺ الذي توازن فيه الجانبان المادي والروحي فكان عليه الصلاة والسلام يعيش حياته البشرية العادية ، ويشبع حاجاته البدنية في الحدود الشرعية ، كما يشبع حاجاته الروحية بالإخلاص في عبادة الله تعالى ... فشخصية الرسول ﷺ هي الشخصية الإنسانية الكاملة والنموذج الأكمل للشخصية السوية التي تحققت فيها الاستقامة في السلوك في أكمل صورها لقد كان رسول الله ﷺ النموذج المثالي للنفس المطمئنة التي تحققت فيها جميع مؤشرات الصحة النفسية في أعلى مستوياتها))
(ص ٢٧٨)

ومن خلال مقارنة معيار ابن القيم مع معايير الدراسات النفسية يجد الباحث أن أبعدها عنه المعيار الإحصائي والاجتماعي والذاتي ، فقلة العاملين بسلوك حسن معين يعتبر سواء في الحكم وإن كان نادراً في الواقع وذلك ((لأن الالتزام بالسوية الإحصائية يعد فشلاً من ناحية الشخص في القيام بالأفعال الحميدة ، ويجعله يلتزم بما يتعارض أحياناً مع حكمة الأكثر صحة))
(الشهيد ، ١٣٩٩هـ : ٢٨)

أما المعيار الاجتماعي فلأنه لا ينضبط ومعرّض للتغير وقد ناقش الباحث ذلك في التوافق ، وأما المعيار الذاتي فكذلك تختلف الأفهام من إنسان لآخر

خاصة إذا لم يكن هناك مرجع رباني يحفظ الفكر من الخطأ ... اللهم إلا إذا كانت هذه الذاتية صادقة ومتجردة فممكن أن تكون محكاً رافداً .

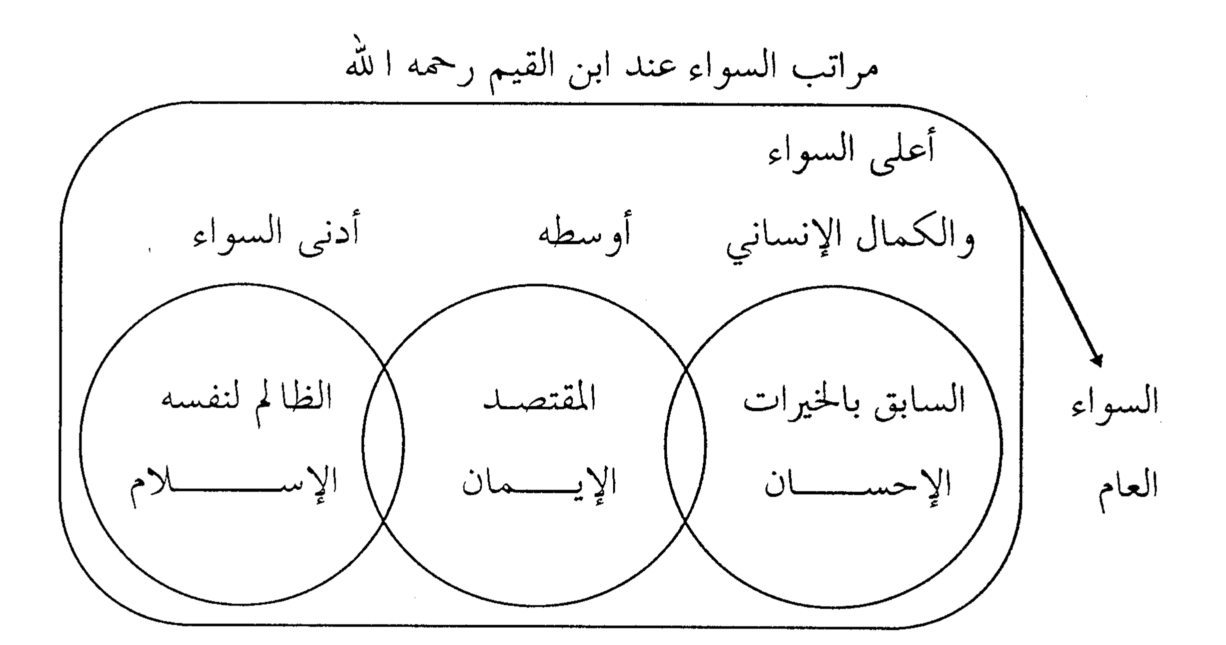
إن معيار ابن القيم لتحديد السواء والاضطراب يتسم بعدة ميزات و هي:

أولاً : أن معيار ابن القيم معيارٌ " شرعي " " إسلامي " شرعه الله تعالى ؛ وبينه وفصله رسوله صلى الله عليهم وسلم .

ثانياً :يتميز بتعدد إقامة الشواهد المصدقة له من الفطرة " الطيبة " والعقل والغاية من الخلق " المعنى للحياة " .

ثالثاً : الواقعية في المعيار ، نعم هو يريد نموذجاً رفيعاً طموحاً لكن مع ذلك فالسواء درجات يدخل فيه من تكاسل أحياناً أو ضعف كثيراً ومثال ذلك مراتب السواء " الدين " وهي : الإحسان ، الإيمان ، الإسلام ، فقمة السواء والكمال الإنساني هو المحسن وبعده المؤمن ثم يأتي أخيراً المسلم الذي خلّط في عمله فخرج عن دائرتي السواء الرفيعة إلى أن حل في درجة السواء الواسعة إن الشرع الإسلامي لا يخرج الإنسان من دائرة السواء ما دام أنه يحمل بعض كمالاته فمن لم يكن محسناً ربما كان مقتصداً ومن لم يكن كذلك كان ظالماً لنفسه معه بعض الخير الذي يحفظه عن السقوط الأخير في الاضطراب والحيرة والشكل التالي يوضح ذلك :

مراتب السواء عند ابن القيم رحمه الله



وابن القيم تكلم عن ذلك وحدد الفروق بين الدرجات وبين العاملين فقال : ((وأما السائرون إليه فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وإيثار شهواته ولذاته على مراضي الرب سبحانه وأوامره مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه ، يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع إلى الله فهذا حال المسلم)) ، ثم تكلم عن المقتصد فقال : ((وأما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه فهممهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة)) ، أما السابقون بالخيرات فقال عنهم : ((إنهم قوم امتلأت قلوبهم من معرفة الله وعمرت من محبته وخشيته وإجلاله ومراقبته فسرت المحبة في أجزائهم فلم يبق عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب ، فلا يتقلب إلا في شيء يظهر له فيه مرضاة ربه وإن كان من الأفعال العادية الطبيعية قَلَبَه عبادةً بالنية وقصد الاستعانة به على مرضاة ربه)) (طريق الهجرتين : ٣١٤) .

وأما عدم السواء والاضطراب الكامل فهو الخروج من الإسلام وانطماس القلب وطبعه بالشرك والبدع وهم الأشقياء قال ابن القيم في ذلك ((أما

الأشقياء فقطعوا تلك المراحل – مراحل حياتهم – سائرين إلى دائرة الشقاء متزودين غضب الرب سبحانه ، ومعادة كتبه ورسله ومابعثوا به ، ومعادة أوليائه ، والصد عن سبيله ، فقطع هؤلاء الأشقياء مراحل عمرهم في ضد ما يحب الله ويرضاه)) (المرجع السابق : ٣١٤) وهم مِلَلٌ وأنواعٌ وطرائقُ لا يحصرهم عدد .

رابعاً – إن أقرب معايير علم النفس لمعيار ابن القيم مع بعدها كلها هو المعيار القيمي ، إلا أنه يختلف معه بأن معيار ابن القيم مصدره رباني ، وذاك بشري ومعيار ابن القيم واقعي ، بينما المعيار المثالي يتمحور حول الكمال المطلق وهذا محال وكذلك يتفق مع المعيار الطبيعي الذي يعتبره ابن القيم فطرة وهي الطبيعة السليمة التي لم تتشوه بضلالات ، كذلك يقترب كثيراً مع المعيار النفسي الموضوعي الذي يفسر الشذوذ بأنه اضطراب شديد في السلوك ووظيفته ، إلا أن التفسير للسلوك منه يغفل عن الجانب الروحي وبالتالي يهمل أثره وجوداً وعدماً ، وهذا يجعله ناقصاً ، فاجتماع المعيار القيمي الواقعي مع المعيار الطبيعي السليم ، ووجود المعيار الموضوعي السلوكي ، إضافة إلى المصدر الرباني وإبرازاً للجانب الروحي ، يعطي معياراً متكاملاً يجمع بين جميع جوانب السلوك ، ومصادر متعددة بقيادة المصدر الرباني الإلهي يمكن أن يطلق عليه " المعيارالشرعي " .

خامساً : إن المعيار الشرعي الذي يستند إليه ابن القيم أنه يحكم على الاشخاص بالسواء والاضطراب ودرجات لكل منهما .. فإن ذلك بناء على السلوكيات والأعمال والأفعال وهو ما يطلق عليه ابن القيم بالأحكام التكليفية فهناك الواجب على الإنسان فعله وهناك مايحرم على الإنسان فعله .. وبعد ذلك يأتي ما يفضل ويستحب أن يفعله الإنسان وهناك مايكره أن يفعله الإنسان ، وهناك المباح الذي يكون حكمه بحسب ما يتصف ويتصل به من

واجب أو محرم أو غيرهما ، وهذه الأحكام توضح المعيار الشرعي " العملي " بحدود واضحة ، وإلى ذلك أشار ابن القيم فقال : ((والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ،ومباح ، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح)) (مدارج ، ج١ : ١٢٩) ، إذاً الحكم يتوجه أولاً للأقوال والأعمال والقلبيات ومن ثم يتلبس بها المرء فيتميز السوي الصالح من المضطرب الطالح .

منهج ابن القيم للحكم على المعلومات

إن هذا الفصل عقده الباحث ليعرض مصادر ابن القيم التي عن طريقها يحكم على المعلومات والسلوكيات والقلبيات .

أ- وهي مصادر متعددة تجمع بين النقل والعقل والملاحظة والتجربة

المصدر الأول : النقل وهو الكتاب والسنة " الوحي " :

وفي ذلك يقول : ((إنه إذا وقع النزاع في حكم فعل من الأفعال ، أو حال من الأحوال ، أو ذوق من الأذواق ، هل هو صحيح أو فاسد ؟ حق أو باطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين وهي وحيه الذي تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه وتعرض عليه وتوزن به)) (مدارج ، ج١ : ٤٩٣) .

المصدر الثاني : العقل

وفي ذلك يقول : ((إن طرق العلم ثلاث : الحس والعقل ، والمركب منهما فالمعلومات ثلاثة أقسام : أحدها ما يعلم بالعقل ، والثاني ما يعلم بالسمع " الوحي " والثالث بالعقل والسمع)) (الصواعق المرسلة : ١٦٨) وبين ابن القيم خاصية العقل وفائدته فيقول : ((ثم خاصية العقل واللب : التمييز بين مراتب المحبوبات والمكروهات ، وإيثار أعلى المحبوبين على أدناهما واحتمال أدنى المكروهين للتخلص من أعلاهما)) (إغاثة ، ج٢ : ١٦٥) .

وأوضح ابن القيم عدم استقلالية العقل عن النقل أبداً وذكر أن العقول لا تستقل بنفسها عن الوحي فقال : ((لا ريب أن الشرائع تأتي بما لا تستقل العقول بإدراكه فإذا جاءت الشريعة اهتدى العقل حينئذٍ إلى وجه حسن مأمورة وقبح منهيه فسرته الشريعة على وجه الحكمة والمصلحة الباعثين لشرعه فالشرائع تأتي بمجازات العقول لا بمحالات العقول ونحن لم ندَّعِ ولا

عاقل قط أن العقل يستقل بجميع تفاصيل ما جاءت به الشريعة بحيث لو ترك وحده لاهتدى إلى كل ما جاءت به)) (مفتاح ، ج٢ : ٩٩) .

وبين أن الأمور الغيبية التي لا تدركها العقول وهي كثيرة فإن الإنسان يأخذها عن طريق الوحي فقال : ((والمقصود أن الأمور الغائبة عن الحس نسبة المحسوس إليها كقطرة من بحر ولا سبيل إلى العلم بها إلا الخبر الصادق)) (الصواعق المرسلة : ١٦٩) ويعني بالخبر الصادق الوحي من الكتاب والسنة .

المصدر الثالث : التجربة

والتجارب يستشهد بها ابن القيم دائماً ويؤيد بها أقواله ؛ فيقول أثناء كلامه عن الرقية الشرعية النافعة : ((وأما شهادة التجارب بذلك فهي أكثر من أن تذكر وذلك في كل زمان وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أموراً عجيبة ولا سيما مدة المقام بمكة ؛ فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة ، بحيث تقطع الحركة مني وذلك في أثناء الطواف وغيره فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط ، جربت ذلك مراراً عديدة ، وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء)) (مدارج ، ج١ : ٨٠) ويقول أيضاً : ((وكذلك من رفَّه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب)) (إغاثة ، ج٢ : ٧٩)

المصدر الرابع : الملاحظة

ويطلق عليها ابن القيم المشاهدة ، يقول في معرض كلامه عن تعذيب الكفار والمنافقين بأموالهم في الدنيا : ((فالصواب والله أعلم أن يقال : تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبتها ويؤثر بها على

الآخرة بالحرص على تحصيلها ، والتعب العظيم على جمعها ومقاساة أنواع المقاساة في ذلك ، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه وهو حريص بجهده على تحصيلها ، والعذاب هنا هو الألم والمشقة والتعب ، ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث : هم لازم ، وتعب دائم ، وحسرة لا تنقضي)) (إغاثة ، ج١ : ٥٧) إن ابن القيم في هذا النص أيد قوله بالمشاهدة والملاحظة وفصل ذلك بما رآه ولاحظه مما يدل على اعتماده عليها كمصدر لتأييد المعلومات والآراء .

والمصدران الأخيران يندرجان تحت المصدر العام لهما وهو الحس إذ يعتبره مصدراً مهماً وفي ذلك يقول في أحد ردوده : ((والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص)) (الروح : ٨٣) .

ويضيف ابن القيم مع المصادر الأربعة الفطرة السليمة والذوق الحسن ، حيث الفطرة تمثل الأرضية التي تثمر فيها أحكام الشرع ، والذوق شاهد على سلامة هذا السلوك أو ذاك وكلها تحكم بحكم الشرع ودائماً يأتي بهما أو بأحدهما مع المصادر السالفة الذكر ، ومثال على ذلك يقول : ((وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين ، وطلب مرضاته والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير ، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر ، فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمه بمثل طاعته ، والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه)) (الجواب : ٣٦) .

إن منهج ابن القيم في الحكم على المعلومات يتسم بعدة ميزات :-

الأولى : اتسامه بالاتساع وكثرة التمثيل لمصادر المعرفة كلها مما يؤكد النتائج التي خلص إليها .

الثانية : أن منهجه هذا الذي كان متمحوراً كثيراً على الوحي لم يحجزه عن تفعيل الحس واستخدام الملاحظة وإعمال الفكر والعقل وهو يجزم أن هذه

المصادر تتوافق ولا تتعارض يقول في ذلك : ((ولهذا كان العقل الصحيح موافقاً للنقل الصريح والشرعة مطابقة للفطرة يتصادقان ولا يتعارضان))

(شفاء ، ص : ٦٤٢)

الثالثة : إن هذا التعدد في المصادر والربانية في أحدها يقلل الخطأ بالنسبة مع غيره حيث تتعدد مصادره ما بين النقل والعقل والحس والتي تربي الجسم والعقل والروح ، زيادة على ذلك أن المصدر الإلهي يتجرد عن كل النزعات الشخصية والذاتية التي تظهر في كتابات الباحثين .

والدراسات النفسية تعتمد في منهجها على مصادر مثل العقل والتجارب والملاحظة والمقابلة ويدخل فيها الاختبارات ، وإنما يؤمنون بما يلاحظونه ويحسون به وجعلوا ((القضايا التي تتصل بما وراء الوجود ولا تقع في نطاق الحس لا معنى لها كما أن جميع العبارات المتصلة بالقيم الأخلاقية أو الجمالية أو الدينية ولا يمكن التحقق منها علمياً " حسياً " لا معنى لها))

(رجب ، ١٤١١هـ : ٧٠)

وهم بهذا حصروا العلم ومنهجه بالماديات والحسيات وهذا إجحاف بالعلوم الأخرى التي لا تطالها الحواس ، يقول بدري (١٤٠٩هـ) : ((إن المبالغة في تضخيم دور الحس في المعرفة تقوُّل على كثير من خصائص الإنسان الأخرى التي لا تخضع للحس المباشر كالقضايا الأخلاقية ، وإن اعتبار كل ما لا يقع تحت الملاحظة الحسية " قضايا زائفة " أو مجرد تعبيرات انفعالية لا معنى لها فيه تجني على الفلسفة ذاتها)) (ص ٢٧)

لقد أورد رجب (١٤١١هـ) بعض انتقادات علماء غربيين لهذا المنهج ذاكرين أن الحواس تصاب بالخداع والخطأ ومن هؤلاء " السير فرانسيس " ولذلك لمّا لم يستطيعوا الثقة بحواس الإنسان وعقله لجأوا إلى التجربة والذي نادى لذلك " بيكون " وفوجئوا أنهم أمام معضلة الموضوعية والصدق ... التي

تطلبها التجربة وتفسيراتها ... وهذه تنجح كثيراً في العلوم الطبيعية " المادية " بينما لا تنضبط في دراسة الإنسان يقول رجب (١٤١١هـ) : ((والواقع أنه حتى لو كان من المقبول أن نتحدث عن الموضوعية والحياد القيمي في العلوم الطبيعية فإنه لا يمكن التسليم بذلك المنهج في دراسة الإنسان والمجتمع البشري وذلك لأن العلم لابد أن يتداخل مع المصالح ومع القيم ويصبح الحياد والموضوعية التامة أمراً عظيم الصعوبة حينئذ لابد أن يأتي ذلك الإطار الموضوعي المحايد من مصدر خارج نطاق البشر أي مصدر إلهي))
(ص : ٧٢)

إذاً رجب يتفق مع ابن القيم بعدم استقلالية الإنسان لوضع علمه وإقامة حياته بدون رجوع لمصدر لا يعتريه الخطأ ولا يجوز عليه النسيان وهو الوحي وهذا مما يعصم الإنسان عن كثير من الأخطاء التي يقع فيها كثير ممن يعتمد على مصادر بشرية معرضة دوماً للخطأ والنسيان وعدم الحياد أحياناً ، إن الدراسات النفسية وابن القيم متفقان على أهمية العقل والحس ويدخل فيه الملاحظة والتجربة كمصادر للمعرفة ، إلا أن ابن القيم يؤكد على مصدر الوحي كطريق مهم مهيمن للمعرفة وله السيادة والريادة عليها كلها بينما الدراسات النفسية طورت في التجارب ونتائجها وبلغت فيها شأواً عظيماً ووصلوا إلى نتائج كان لها أثر في معرفة السلوكيات المناسبة والأمراض وأساليب التعلم .

ب- منهج ابن القيم مع مخالفيه في المصادر والإيمان :-

إن منهج ابن القيم مع مخالفيه والذين لا يتفقون معه على مجمل الأفكار والمعتقدات منهج قائم على الحق والعدل فهو يذكر صفة لأهل الصراط المستقيم وأهل الحياة الطيبة في التعامل مع مخالفيهم يقول : ((فأهل الصراط

المستقيم : بريئون من الطائفتين – الذين خالفوا الحق – إلا من حق تتضمنه مقالاتهم فإنهم يوافقونهم عليه ويجمعون حق كل منهما إلى حق الأخرى ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل)) (مدارج ، ج١ : ٤١٨) فابن القيم يرى أن الإنسان يسعى لطلب الحق ويأخذه ممن أتى به وشعاره " الحكمة ضالة المؤمن " وابن القيم يذم ذماً شديداً التعصب لطريقة معينة أو عالم معين لأن ذلك سبب لرد الحق الذي مع المخالف ويأمر أن يكون سعي الإنسان لطلب الخير والحق دائماً دون النظر لقائله وفي ذلك يقول : ((فنجعل حق الطائفتين مذهباً ثالثاً يخرج من فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين من غير أن ننسب لذي مقالة وطائفة معينة انتساباً يحملنا على قبول جميع أحوالها والانتصار لها بكل غث وسمين ورد جميع أقوال خصومها ومكابريها على ما معها من الحق حتى لو كانت تلك الأقوال منسوبة إلى رئيسها وطائفتها لبالغت في نصرتها وتقريرها وهذه آفة ما نجى منها إلا من أنعم الله عليه وأهَّلَه لمتابعة الحق أين كان ومع من كان ، أما من يرى أن الحق وقف مؤبد على طائفته وأهل مذهبه وحجر محجور على من سواه ممن لعله أقرب إلى الحق والصواب منه فقد حرم خيراً كثيراً وفاته أجر عظيم))
(مفتاح ، ج٢ : ٥٧)

إن الباحث أوضح منهج ابن القيم في طلبه للحق ليستفيد منه الباحث وغيره في التعامل مع الدراسات النفسية الحديثة خاصةً التي كانت غربية خالصة ، هل نأخذها جملة ؟ أم نتركها جملة ؟! أو هناك تفصيل ، فتطبيقاً لمنهج ابن القيم حول الدراسات النفسية فإنه يرى أن تعرف وتقرأ ما عندهم فالحق يؤخذ والباطل يرد والمعيار الموافقة للحق بغض النظر عن القائل والحذر الحذر من الحكم قبل النظر تعصباً بغير هدى لقد طبق منهج ابن القيم في التعامل مع الآخرين المخالفين إما جملة أو في أحد الجوانب عدد لا بأس به من

المتخصصين في الدراسات النفسية ومثال على ذلك (بدري ، ١٤٠٧هـ) يقول : ((فأما علم النفس كعلم تجريبي فنقبله بشكل عام ولكننا نرفض خلفيته الفلسفية وبعض أساليبه وممارساته التي تتنافى مع ديننا ، وعلم النفس كفلسفة والتي تظهر في النظريات العامة عن الإنسان وطبيعته بالرفض العام ، لكننا لا نستنكف من الاستفادة من بعض جوانبها المفيدة ، وأما علم النفس كفن أو حرفة دقيقة تحتاج إلى تدريب عملي وخبرة طويلة في الأداء كفنون العلاج النفسي وتطبيق اختيارات الذكاء والتدريس فإنه لا حرج علينا في تعلمها والإفادة منها إلا إذا ناقضت أساليبها ومقاصدها فكرنا الإسلامي))
(ص : ٥٠)

وهذا الكلام من وجهة نظر الباحث يعتبر تطبيقاً لمنهج ابن القيم وذلك بأخذ المفيد والموافق للحق وترك الضار والمخالف للحق . والباحث في الصحة النفسية وجد عندهم اهتماماً جيداً بصحة الجسم وإرشادات فعالة لجلب الهدوء والطمأنينة وتأكيداً كبيراً على التعاون والمبادأة مع المجتمع ... إلا أن كلامهم اعتراه النقص وذلك لتخلف المصدر الإلهي عندهم .

إذن منهج ابن القيم الذي يتسم بالشمول في مصادره والحق والعدل في تعامله مع المخالفين منهج جيد من وجهة نظر الباحث وحَسَنٌ أن يُعمَّم على جميع التخصصات ، الشرعية ، والتربوية ، والنفسية ، والعمل به ، فيؤخذ الحق ممن أتى به كائناً من كان ، ويرد الباطل المخالف للحق سواء كان دليلاً أو نظرية أو سلوكاً ممن أتى به ولو كان أقرب قريب فالحق لا يعرف بالرجال بل الرجال يعرفون بالحق .

الفصل الخامس

خلاصة النتائج

- خلاصة ما خرج به الباحث لتحقيق الصحة النفسية "الحياة الطيبة" من وجهة نظر ابن القيم .

- نتائج الدراسة .

- التوصيات والمقترحات .

خلاصة ما خرج به الباحث لتحقيق الصحة النفسية

" الحياة الطيبة " من وجهة نظر ابن القيم

سوف يعرض الباحث الأسلوب المقترح لتحقيق الصحة النفسية من وجهة نظر ابن قيم الجوزية ، وذلك بعد أن عرض الباحث مفاهيم ابن القيم حول الصحة النفسية وسماتها ومرتكزات تحقيقها وبيان مفهوم التوافق والسواء والاضطراب والمعيار لتحديد ذلك .

١- يرى ابن القيم أن الحياة الطيبة " الصحة النفسية " تتحقق بتربية وتقوية القوتين العلمية والعملية ، فالعلمية عن طريق الإيمان والعلم النافع ، والعملية بتقوية الإرادة والمحبة ، ويتحقق ذلك بعمل الصالحات بشتى أنواعها ، وبعد ذلك تكميل الغير عن طريق " التواصي " وهو التكامل مع المجتمع ببيان الفضائل والحق وعملهما ، وبيان الباطل والرذائل واجتنابهما ، وتصبير النفس على ذلك ، كل ذلك يبين حقيقة العبودية لله تعالى .

٢- معرفة الهدف الأكبر في الحياة وهو القيام بعبادة ا لله تعالى بمفهومها الشامل ، وذلك تحديد الأهداف الصغرى في علم أو فعل أو ترك وذلك أن تحديد الأهداف ينظم حياة الإنسان ، ويستفاد من وجودها .

٣- الاهتمام بالعقل وحفظه من الآفات وإبعاد الخرافات عنه ، ووصله با لله تعالى ، وذلك عن طريق حفظ الخواطر من الانحطاط ، وعن طريق التعلم والمعرفة بالتفكر والاعتبار .

٤- المرجعية لابد أن تكون للحق ومتابعة أوامره ونواهيه وعدم متابعة الخلق إلا بالحق والعدل ولذا فالمسلم يأخذ من الكتاب والسنة ومن سلك طريقهما أو من قال قولاً لا يخالفهما .

٥- تقوية الإرادة والنظر إلى معالي الأمور والطموح ، والجد في العمل وتحقيق

أعلى مستوى من الخير في أقصر وقت ممكن مع شرط الاستمرارية عليه .

٦- بناء القلب القوي الصادق وفي نفس الوقت الليِّن ، فهو صامد أمام الأحداث والأقدار بالإيمان با لله والتوكل عليه ، والصبر والتحمل ، ويصاحب ذلك ليونة ورقة ليظهر العطف والإحساس بالآخرين وحاجاتهم .

٧- إحياء التفاؤل في النفس والحياة مما يكوِّن لدى الإنسان قوة نفسية ، وثقة بالنفس كبيرة فيقبل على العمل وإن كان صعباً .

٨- المحافظة على الوقت وذلك بتنظيمه ، وتقديم الأهم فالمهم ، وعدم الاشتغال بصغار الأشياء ، وإهمال كبارها ، بل الاشتغال بكبار الأشياء مع عدم إهمال صغارها .

٩- تلبية حاجات الإنسان المتعددة البدنية ، والروحية ، والنفسية ، تلبية متزنة معتدلة وذلك بإعطاء كل ذي حق حقه مع الاهتمام الأكبر بتنمية الجانب الروحي عن طريق الذكر وقراءة القرآن ، والعلم النافع والعمل الصالح والإحسان للناس .

١٠- الحرص على الصدق دائماً ، وعدم اللجوء للكذب ، والصدق يقلِّل بالطبع من كثرة الاعتذار الناشئة من الكذب الذي بدوره يذهب مصداقية الإنسان والثقة به .

١١- بناء مفهوم الذات الصحيح عن طريق أمرين :

أ- معرفة ا لله تعالى عن طريق وحيه ، وتعظيمه وإجلاله وأداء حقه بالعبادة

ب- معرفة النفس وضعفها ومحدودية علمها وحاجتها الماسة إلى ا لله فتعبد ا لله وتسد فاقتها .

١٢- الاهتمام بالأوبة والتوبة ، فإن أخطأ الإنسان أو سقط فهناك باب عظيم هو باب التوبة ، ولبها الاعتراف ، وهو نصف الإصلاح للأخطاء والرجوع للحق وهو تكميل إصلاح الخطأ كله ، مما يبعث في النفس الإقبال والفرح

بدلاً من اليأس والقنوط والإحباط .

١٣- الإيمان الحقيقي بالدار الآخرة وتذكر الإنسان أن أمامه حياة سرمدية فإما نعيم أو عذاب أليم ، ولذا يعمل لها الإنسان ويتحمل من أجلها ويهيأ نفسه لها .

١٤- التقويم والمراجعة لكل عمل ونشاط ، ومعرفة نتائجها من خير أو شر أو كسب أو خسران ، ومحاسبة النفس على ذلك ومن ثم إصلاح الأخطاء والسلبيات والاستمرار على الصواب وزيادة الإيجابيات .

نتائج الدراسة

وبعد مناقشة آراء ابن القيم حول بعض المفاهيم في الصحة النفسية " الحياة الطيبة " يخرج الباحث بالنتائج التالية :

١- اتفاق وجهة نظر الدراسات النفسية الحديثة ووجهة نظر ابن القيم على أهمية الصحة النفسية " الحياة الطيبة " وأن العاقل ينبغي أن يطلبها ويحرص على ذلك ويبذل قصارى جهده في سبيل تحقيقها .

٢- اختلاف وجهة نظر الدراسات النفسية عن وجهة نظر ابن القيم حول مفهوم الصحة النفسية فبعضهم يرى أن الصحة النفسية تتحقق بالتكيف والتوافق مع النفس والمجتمع ، وبعضهم يراها بالتأثير والتبادل والتعاون ، وآخرون يرونها بغياب أعراض الأمراض النفسية وهم يدورون حول هذه المعاني ، بينما ابن القيم يرى أهمية هذه الأشياء إلا أنه يرى أن الحياة الطيبة والصحة تتحقق بعبادة الله بمفهومها الشامل عن طريق الإيمان والعمل الصالح

٣- أبرز ابن القيم في سمات الصحة النفسية دور الجانب الروحي الإيماني كالعبودية والذكر وغيرهما بينما هذا الجانب لا يكاد يوجد في الدراسات النفسية إلا قليلاً .

٤- ركزت الدراسات النفسية الحديثة لتحقيق مرتكزات الصحة النفسية على مفهوم الذات معرفة وتحقيقاً بناءً على متابعة أقوال العلماء والمرشدين النفسيين و لم تذكر أهمية معرفة الله في بناء المفهوم الصحيح للذات وهذا ما أشار إليه ابن القيم وأكد عليه بالإيمان بالله والتوكل عليه وتجريد متابعة النبي ﷺ وليس فقط إشارات علماء النفس مع الاستفادة من أقوالهم إن لم تخالف الكتاب والسنة .

٥- أكد ابن القيم على أن المعتبر في التوافق هو موافقة الحق لا الخلق وهنا

اختلف ابن القيم عن الدراسات النفسية التي تؤكد على أن المعتبر في التوافق النفسي والاجتماعي المبني على المرونة والمسايرة وذلك بتحقيق الذات وفق أهداف المجتمع ، ولذا فحدود التوافق غير واضحة ، وذلك لافتقارها لمعايير الحلال ، والحرام أو ما يطلق عليه " المعايير الشرعية والأخلاقية " .

٦- ركزت الدراسات النفسية في السواء والاضطراب على الجانبين النفسي والبدني على حد سواء بينما أشار ابن القيم إلى السواء والاضطراب البدني إشارات وركز أكثر وأكثر على السواء والاضطراب النفسي " القلبي "

٧- ربطت الدراسات النفسية السواء والاضطراب بخروج السلوك عن المألوف أو اختلافه عن معايير المجتمع سواء كانت حسنة أو سيئة ، أما ابن القيم فيربط السواء والاضطراب بتحقيق العبودية عن طريق معرفة النفس وحاجتها لله ، ومعرفة الله وطاعته وجوداً وعدماً .

٨- أكد ابن القيم على أهمية دور الخواطر والأفكار في الترقي في كمالات السواء أو النزول في مراتع الاضطراب وبذلك تتفق نظرته مع بعض الدراسات النفسية ، كمدرسة السلوك المعرفية التي تبرز أهمية معالجة العمليات العقلية " التفكير " لتحقيق السواء ، وإبعاد الاضطراب .

٩- اتفاق الدراسات النفسية وابن القيم حول مصادر المعرفة وهي الحس والعقل وذلك باستخدام الملاحظة والتجربة والاستقراء ، إلا أن ابن القيم زاد عليهم بذكر مصدر الوحي " النقل " ووجوب تقديمه على غيره من المصادر بينما الدراسات النفسية أهملت ذلك وغلت كثيراً في المصدر الحسي " الامبيريقي " ويرجع ذلك إلى عدم الإيمان با لله تعالى .

١٠- إن معيار ابن القيم لتحديد السواء والاضطراب " معيار شرعي " يتميز بما يلي :

أ- الشمولية حيث يرى أهمية العقل والحس والاستفادة من الملاحظات

والتجارب مع الرجوع للنقل الصحيح ، هذه الشمولية تبعده كثيراً عن الأخطاء والاختلافات التي تقع في الدراسات النفسية .

ب- المعيارية " المثالية " حيث يطلب الكمال ويحثه على بلوغ درجة الإحسان وهو المؤمن العامل الطموح المتعاون الفعال .

ج- الوصفية " الواقعية " حيث لم يطلب منه المستحيل ، وفتح له أبواب المراجعة والتقويم ومن ثم التوبة ، والتفاؤل ورغبه في التجديد والمبادرة

١١- يرجع سبب الاختلاف بين ابن القيم والدراسات النفسية الحديثة في بعض مفاهيم الصحة النفسية إلى اختلافهما حول ثلاثة أمور مهمة :

١- أصول الخلق . ٢- مصادر التلقي . ٣- الغاية من الخلق والهدف الغيبي .

فابن القيم يؤكد أن خلق الإنسان له أصلان ، روحي إلهي وهو النفخة ، ومادي طيني وهو التراب ثم الماء الذي يمثله الجسم ، ولذا فلا بد لمريد الصحة والسعادة من تحقيق توازن بينهما مع الاهتمام بالجانب الأول أكثر ، أما الدراسات النفسية ففي أغلبها إغفال للجانب الروحي ، وإغراق في الجانب البدني ، مما جعل نتائج دراساتهم لتحقيق الصحة النفسية محدودة .

أما مصادر التلقي ؛ فهي عند ابن القيم متعددة تجمع بين النقل " الوحي " والعقل والحس بينما الدراسات النفسية تقتصر على العقل والحس وإغفال المصدر الأول لعدم الإيمان به من إذ أنه ليس داخلاً تحت نطاق الحواس . أما غاية الخلق فلقد أكد ابن القيم أن الغاية من خلق الإنسان في الدنيا العبادة ، والوظيفة الأساسية له إقامة خلافة الخير والعدل في الأرض ، مع الاستعداد للقاء الله ودخول الجنة إن هو حقق ذلك ، أو النار إن غيَّر أو بدل أو كفر ، بينما الدراسات النفسية أكدت على تحقيق السعادة الدنيوية الآنية ، وتحقيق مصالح الفرد والمجتمع الحالية وعدم ربط ذلك بالعبادة أو الدين ، ومن ثم

إغفال الجانب الروحي . وهم لا يذكرون الحياة الأخروية والاستعداد لها البتة مما جعل توصياتهم وإرشاداتهم فيها نوع من الجفاف والمواصفات المادية .

١٢- أن الدراسات النفسية اعتمدت في دراساتها على التجريب والاختبارات ، وهذا أعطى نتائجها قوة ، ولكن بالرغم من ذلك فهي محدودة الفائدة ، نظراً لعدم الاهتمام بالجوانب الأخرى عند الإنسان كالروح والأفكار ، وإن كانوا أخيراً التفتوا لأهمية الأفكار وأثرها في السلوك إلا أنهم لم يلتفتوا لأثر الروح وإيضاحه بقوة .

١٣- يؤكد ابن القيم على أهمية أخذ الحق ممن جاء به ، ولو كان مخالفاً في نظرة أو عقيدة ، وذلك لأن العبرة بمعرفة الرجال بالحق ، لا الحق بالرجال وهذا يعطي المتخصص اعتدالاً في التعامل مع الدراسات النفسية وغيرها ، وذلك بأخذ المفيد وترك غير المفيد شريطة أن لا يشتمل على محرم أو يؤدي إليه .

التوصيات

من خلال النتائج التي توصل إليها الباحث يتضح وجود قدر كبير من المعلومات والتأصيل لدى العالم المسلم " ابن قيم الجوزية " رحمه الله حول الصحة النفسية ، مفهوماً ، وسمات ، ومرتكزات ، وكذلك التوافق والسواء والاضطراب ومعيار تحديدهما ، ولذا يوصي الباحث بما يلي :

١- أهمية إبراز الجانب الروحي ، وتأثيره على حياة الإنسان وأنه جانب مهم لتحصيل الحياة السعيدة كما أن فقده سبب كبير لتحطيم الحياة السعيدة

٢- الاهتمام بالعلم النافع للإنسان في دنياه وأخراه ، فهذا مصدر مهم لتحقيق الصحة النفسية والحياة الطيبة عن طريق وسائل التعليم المختلفة .

٣- الاهتمام بالصحتين الجسمية والنفسية ، وأن كلاً منهما يؤثر بالآخر مع الاهتمام الأكبر بالصحة النفسية " القلبية " .

٤- تقوية الإرادة والجد والطموح لدى أفراد الأمة أفراداً وجماعات ، ووضع أهداف عالية وحضهم على بلوغها ، فهذا جانب مهم لتكوين الصحة النفسية .

٥- أهمية إيضاح أن الدين كما أنه اعتقاد قلبي فهو نشاط حركي يتمثل بالعبادات الظاهرة ، من صلاة وذكر وصيام وصدقة وغيرها ، وكذلك الأخلاق من صدق وصبر وعفو وبشاشة ، وأيضاً كما أنه عمل لازم لا يتعدى نفعه كالصلاة والذكر ، فهو عمل متعد نفعه كالصدقة والنصيحة ، فالدين يشمل الاعتقاد والحركة ، والنفع اللازم والمتعدي .

٦- ضرورة إضافة " معرفة الله وطاعته " كجانب أول في تحقيق الذات مقابل ضرورة معرفة النفس وجوانب نقصها ، وهذا يعطي " مفهوم الذات " قوة وامتداداً .

٧- ضرورة إيجاد معنى لحياة الإنسان وهذا يتحقق بالدخول تحت مظلة العبودية لله تعالى بدلاً من اتخاذ " نظريات متعددة " ومتناقضة ، وكلها من صنع بشر .

٨- أهمية تعميق مراقبة ا لله لأن العبرة ليس باتباع الناس والخلق فهذا لا ينبئ عن استقلالية وقوة تميُّز بل العبرة بإتباع الحق والعدل ، وهذا يؤكد مراقبة ا لله وطاعته ، وطريقه واحد ، وعدم الخوف أو الركون للناس ذوي الطرق المتعددة ، والآراء المتابينة .

٩- التأكيد على التعاون والتكميل بين الناس في بذل العلم والخبرة والنصح والتوجيه والتربية ، وذلك يتحقق ببذل العلم والمال والفكر .

١٠- أهمية التعددية في مصادر المعرفة التي تجمع بين النقل " الوحي " والعقل الصحيح ، والملاحظة والتجربة ، وهذه التعددية في المصادر مما يقلل الأخطاء ، والوصول للنتائج الجيدة بدون مصادمة للحس أو الفطرة أو السُنَنَ.

١١- التعامل مع الدراسات النفسية بعدل وحق ، فيأخذ المسلم منهم المفيد الموافق للحق ، ويدع ما يخالف الحق .

١٢- لابد في تحديد الصحة النفسية والسواء والاضطراب ووضع معيار لذلك من النظر لثلاثة أمور :

أ- أصْلُ خلق الإنسان ، وهما أصلان : روح ، وطين .

ب- مصادر التلقي ، وذلك من الكتاب والسنة ، ومن اعتمد عليهما من العلماء ، مع الاستفادة من المصادر الأخرى .

ج- النظر للغاية من الخلق ، وهو إقامة العبودية لله تعالى .

١٣- عدم إغفال الوسائل المستخدمة في الكشف عن المعلومات ، والمفسرة لها كالملاحظة والتجربة والاختبارات والمقاييس مع عدم الاعتماد عليها كلياً لأنها وسائل بشرية محضة ، فلا بد من إدخال المصادر الإلهية ، وجعلها

حاكمة على الكل .

١٤- لا بد أن يجمع المعيار المختار لمعرفة السواء والاضطراب بين :

١- المعيارية " المثالية " . ٢- الشمولية . ٣- الوصفية " الواقعية " .

١٥- أهمية إبراز الإسهامات العلمية في جميع الجوانب النفسية عند ابن القيم وغيره من علماء الإسلام ، وإظهارها للمتخصصين .

المقترحات

وهنا يصل الباحث بعد مناقشة مفاهيم ابن القيم حول الصحة النفسية والوصول لبعض النتائج ، لذكر بعض المقترحات التي توصل إليها .

١- بناء مقياس للصحة النفسية في ضوء المفاهيم التي أوردها ابن القيم استفادة من هذه الدراسة .

٢- إعداد برنامج عملي امتداداً للخلاصةالتي خرج بها الباحث لتحقيق الصحة النفسية " الحياة الطيبة " من وجهة نظر ابن قيم الجوزية وتطبيقه واستخراج النتائج ومقارنتها مع ما قاله ابن قيم الجوزية .

٣- دراسة بعض الجوانب النفسية عند ابن قيم الجوزية مثل :

أ- دراسة النمو في المراحل المختلفة .

ب- القدرات العقلية وأهميتها وأنواعها .

ج- الأمراض النفسية وعلاجها ، كل ذلك دراسة تحليلة مقارنة .

٤- القيام بدراسة مماثلة لهذه الدراسة لدى أحد علماء الإسلام كابن تيمية وابن رجب وغيرهما ، ومقارنتها مع الدراسات النفسية الحديثة .

٥- إعداد دراسة مقارنة بين ابن قيم الجوزية وغيره من العلماء المسلمين الذين اهتموا أيضاً بهذا الجانب أو غيره .

٦- دراسة مفهوم المعيار الإسلامي ، ومصادره ، أوصافه ، تطبيقاته .

قائمة المراجع

١- القرآن الكريم . مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية .

٢- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم (١٤٠٧هـ) العبودية ، بيروت : المكتب الإسلامي .

٣- أبو زيد ، بكر بن عبد الله (١٤١٢هـ) ابن قيم الجوزية ، حياته ، آثاره موارده ، الرياض : دار العاصمة .

٤- إدريس ، جعفر شيخ (١٣٩٧هـ) التصورالإسلامي للإنسان ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد (١٢) .

٥- الألباني ، ناصر الدين (١٤١٠هـ) ضعيف الجامع الصغير وزياداته بيروت : المكتب الإسلامي .

٦- بدري ، مالك (١٤٠٩هـ) علم النفس الحديث من منظور إسلامي الخرطوم : جامعة الخرطوم .

٧- بدري ، مالك (١٤٠٢هـ) أسس الصحة النفسية للطفل المسلم ، الإمارات العربية المتحدة . ندوة رعاية الطفولة في الإسلام .

٨- بدري ، مالك (١٤٠٩هـ) مشكل أخصائي النفس المسلم . ترجمة منى كنتابي ، الخرطوم : شركة الفارابي .

٩- بدري ، مالك (١٤١٣هـ) التفكر من المشاهدة إلى الشهود ، الولايات المتحدة : المعهد العالمي للفكر الإسلامي .

١٠- بيرت، سيريل (١٩٨٥ م) علم النفس الديني ، ترجمة ، سمير عبده بيروت : دار الآفاق الجديدة .

١١- البناء ، سعاد عبد العظيم (١٩٩٠ م) بحوث المؤتمر السنوي السادس

لعلم النفس في مصر ، ج٢ ، القاهرة : الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، الأنجلو المصرية .

١٢- جاي ، ل (١٩٩٣ م) مهارات البحث التربوي ، ترجمة : جابر عبد الحميد ، قطر : دار النهضة .

١٣- الجوزية ، ابن القيم (١٤٠٤هـ) الطب النبوي ، علق عليه : عبد المعطي قلعجي ، حلب : دار الوعي .

١٤- الجوزية ، ابن القيم (د-ت) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، تحقيق : رضوان جامع ، مكة المكرمة : دار الباز .

١٥- الجوزية ، ابن القيم (١٤١٠هـ) الروح ، القاهرة : دارا لحديث .

١٦- الجوزية ، ابن القيم (١٤١٤هـ) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، تحقيق : السيد محمد السيد ، سعيد محمود ، القاهرة : دار الحديث .

١٧- الجوزية ، ابن القيم (د-ت) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، ج١-٢ ، بيروت : دار الكتب العلمية .

١٨- الجوزية ابن القيم (١٤١٠هـ) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، تحقيق : عبيد الله بن عاليه ، بيروت : دار الكتاب العربي .

١٩- الجوزية ، ابن القيم (١٤١٤هـ) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ج١-٢-٣ ، تحقيق : محمد المعتصم با لله البغدادي ، بيروت دار الكتاب العربي .

٢٠- الجوزية ، ابن القيم (١٤١٦هـ) الوابل الصيب من الكلم الطيب تحقيق سليم الهلالي ، الدمام : دار ابن الجوزي .

٢١- الجوزية ، ابن القيم (١٤١٤هـ) طريق الهجرتين وباب السعادتين تحقيق : عمر بن محمود ، الدمام : دار ابن القيم .

٢٢- الجوزية ، ابن القيم (١٤٠٩هـ) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ج١ ، تحقيق : محمد عفيفي ، بيروت : المكتب الإسلامي .

٢٣- الجوزية ، ابن القيم (١٤١٢ هـ) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، تحقيق السيد الجميلي ، بيروت : دار الكتاب العربي .

٢٤- الجوزية ، ابن القيم (١٤٠٨هـ) الفوائد ، تحقيق : محمد الخشت بيروت : دار الكتاب العربي .

٢٥- الحجاجي ، حسن بن علي بن حسن (١٤٠٨هـ) الفكر التربوي عند ابن القيم ، جدة : دار حافظ .

٢٦- رجب ، إبراهيم رجب (١٤١١هـ) المنهج العلمي للبحث من وجهة نظر إسلامية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي : الندوة الأولى للتأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية .

٢٧- السباعي ، عبد الناصر (١٤١١هـ) مشكلات علم النفس في ضوء التصور الغربي للإنسان ، مجلة المسلم المعاصر : العدد (٥٧) .

٢٨- سوسو ، سعيدة محمد (١٩٨٦ م) القيم الدينية والخلقية وأثرها على التوافق النفسي والاجتماعي ، الكتاب السنوي في علم النفس . مج ٥ ، القاهرة : الأنجلو المصرية .

٢٩- الشناوي ، محمد محروس (١٤١٤هـ) نظريات الإرشاد والعلاج النفسي ، القاهرة : دار غريب .

٣٠- الشناوي ، محمد محروس (١٤٠٩هـ) الإرشاد والعلاج النفسي من منظور إسلامي ، القاهرة : المعهد العالمي للفكر الإسلامي .

٣١- الشناوي ، محمد محروس (١٤١٦هـ) خصائص شخصية المسلم في كتابات ابن القيم ، رسالة التربية وعلم النفس ، العدد (٥) ، الجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية . ص ٧٧ - ١٣٢ .

٣٢- الشهري ، سالم سعيد (١٤١٦هـ) الإلتزام الديني في الإسلام وعلاقته بالاكتئاب النفسي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة .

٣٣- الشهيد ، سليمان (١٣٩٩هـ) دراسة سيكولوجية القيم الإسلامية مجلة المسلم المعاصر ، العدد (١٩) .

٣٤- الشويعر ، طريفة بنت سعود (١٤٠٩هـ) الالتزام الديني وعلاقته بقلق الموت ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية للبنات بجدة .

٣٥- صبحي ، سيد (١٤١٣هـ) الإنسان وصحته النفسية ، المدينة المنورة مكتبة إبراهيم الحلبي للطباعة .

٣٦- عبد الخالق ، أحمد محمد (١٩٩٣م) أصول الصحة النفسية ، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية .

٣٧- عبيدات ، ذوقان وآخرون ، (١٩٨٩م) : البحث العلمي - مفهومه - أدواته - أساليبه ، عمّان : دار الفكر .

٣٨- عوض ، سمية (١٤٠٨هـ) التربية الجسمية في الإسلام مع التركيز على كتاب الطب النبوي لابن قيم الجوزية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة .

٣٩- عيسوي ، عبد الرحمن ، (١٩٨٦م) : الإسلام والعلاج النفسي ، الإسكندرية : دار الفكر الجامعي .

٤٠- فهمي ، مصطفى (١٩٧٠ م) الإنسان وصحته النفسية ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية .

٤١- فهمي ، مصطفى (١٤٠٧هـ) الصحة النفسية - دراسة في سيكلوجية التكيف - القاهرة : مكتبة الخانجي .

٤٢- القذافي ، رمضان محمد (د . ت) علم النفس الإسلامي ، القاهرة

منشورات صحيفة الدعوة الإسلامية .

٤٣- القرضاوي ، يوسف (١٣٩٩هـ) الإيمان والحياة ، بيروت : مؤسسة الرسالة .

٤٤- قطب ، محمد (١٤٠٣هـ) الإنسان بين المادية والإسلام ، بيروت دار الشروق .

٤٥- قطب محمد (١٤٠٣هـ) منهج التربية الإسلامية ، ج١ ، بيروت : دار الشروق .

٤٦- محمد ، عودة محمد ، مرسي ، كمال إبراهيم (١٤٠٦هـ) الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام ، الكويت : دار القلم .

٤٧- محمد ، يوسف محمود (١٤١٤هـ) النفس والروح في الفكر الإسلامي وموقف ابن القيم منه ، الدوحة : دار الحكمة .

٤٨- مرسي ، كمال إبراهيم (١٤٠٩هـ) تعريفات الصحة النفسية في الإسلام ، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، الكويت ، العدد (١٢) . ص ٢١٩ - ٢٦٠ .

٤٩- مرسي ، كمال إبراهيم (١٤١٠هـ) تنمية الصحة النفسية في الإسلام مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، الكويت ، العدد (١٤) . ص ٣٣٥ - ٣٦٥ .

٥٠- مرسي ، سيد عبد الحميد (١٤٠٣هـ) النفس المطمئنة ، القاهرة : مكتبة وهبة .

٥١- المطيلي ، أحمد (١٤١٣هـ) العلاج النفسي لدى ابن قيم الجوزية المعهد العالمي للفكر الإسلامي .

٥٢- المهدي ، محمد عبد الفتاح (١٩٩٠م) العلاج النفسي في ضوء الإسلام ، المنصورة : دار الوفاء للطباعة .

٥٣- موسى ، رشاد عبد العزيز وآخرون (١٤١٣هـ) علم النفس الديني ، القاهرة : دار عالم المعرفة .

٥٤- نجاتي ، محمد عثمان (١٤٠٩هـ) الحديث النبوي وعلم النفس ، القاهرة : دار الشروق .

٥٥- نجاتي ، محمد عثمان (١٤١٤هـ) القرآن وعلم النفس ، القاهرة : دار الشروق .

٥٦- نجاتي ، محمد عثمان (١٤١٤هـ) الدراسات النفسية عند العلماء المسلمين ، القاهرة : دار الشروق .

٥٧- النغيمشي ، عبد العزيز محمد (١٤١٥هـ) علم النفس الدعوي ، الرياض : دار المسلم .

٥٨- نورثفيلد ، ولفرد (د . ت) التوترات العصبية وعلاجها . ترجمة : شوقي السنوسي ، القاهرة : دار النهضة .

٥٩- الهابط ، محمد السيد (١٩٨٧م) دعائم صحة الفرد النفسية : الإسكندرية : المكتب الجامعي الحديث .